الشعراء الأعلام

شاعر النبي

حسان بن ثابت الأنصاري

« والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل
واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا
وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي
منقلب ينقلبون . »

قرآن كريم

عبد الله أنيس الطباع

مكتبة المعارف في بيروت

مكتبة
لسان العرب
أ علاء الدين سوقي
www.lisanarb.com

الشعراء الاعلام

شاعر النبي

حسان بن ثابت الانصاري

« والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »

قرآن كريم

دراسة ونقد ومنتخبات

عبد الله انيس الطباع
مجاز في الدراسات الشرقية

مكتبة المعارف في بيروت

الإهداء

إلى الذي علمني الحق بأنبائه الحق

إلى والدي ، أهدي هذا الكتاب.

عبدالله

تعريف بالشاعر

حسان بن ثابت الأنصاري

•

شاعر ، مؤرخ ، مناضل ، اتصل فى الجاهلية بالغساسنة فكانه شاعر بلاط ، وانقطع فى الاسلام الى النبي ، فكانه شاعر دين وسياسة وكفاح . ولكنه لم يترك فى العصرين نزعته الخزرجية اليثربية فصبغ المدح والهجاء الرسميين بصبغة التاريخ القومي والنضال الحزبي .

هذا ما نراه فى حياته ، وفى شعره عدة العصرين .

فؤاد افرام البستاني .
رئيس الجامعة اللبنانية

مقدمة

•

على القيثارة الواحدة ، انشد حسان بن ثابت لونين من الشعر تباينا في اكثر من ناحية ، في القالب والمضمون ، وكانا مع ذلك استمراراً في تطور حياة وتطور نفسية ، حياة الرجل ، ونفسية الأديب ...

لقد تراوحت حياة حسان بين عصرين من اكثر العصور التي مرت على اهل العربية تناقضاً في السياسة والدين والاجتماع ، وما يتبع ذلك كله من المنافرة والخلاف في القيم والعادات والتقاليد ، وكان في هذا وذاك شاعراً قومياً منفلتاً من قيود الذاتية ، منطلقاً في اجواء الشعور الجماعي ، منفعلاً وفاعلا ، متأثراً ومؤثرا ، مطبوعا بطابع الجاهلية ، ومطبوعا بطابع الاسلام مؤرخاً للفترتين ، في كثير من صدق وكثير من دقة ... وفي هذا وذاك ما يدفع النقاد ومؤرخي الادب للعناية بشاعر كحسان ابن ثابت . فمن الشعر ما هو وثيقة لعالم «الأنا» أنا الاديب التي تعيش مع انا المجتمع في صومعتها ، وأذنها الشاعر الى الداخل ... ومن الشعر ما هو وثيقة لعالم « الغيرية » غيرية المجتمع الذي

يعيش مع « أنا » الاديب في رحاب الكون ، وأذن الشاعر عند ذاك في الداخل والخارج ، انطواءً وانطلاقا .

وفي شعر حسان امتداد بين العالمين ، آخذ في البروز والبيان يبدأ في حدود من القبلية والحزبية لينتهي في حدود من ذلك وانطلاق في القومية والدينية .

وانه بعد لشريط ممتع ، ان نلمس خطوات من حياة ، وخيوطاً من نفسية من خلال واقع مزدوج ، عاش فيه الاديب تجربتين في الشعور ...

لهذا كله اقدم حسان في سلسلة « الشعراء الاعلام » كامتداد للذاتية التي اعطت وبطابعها المزدوج من خلال الذات التي تذوقت فنقدت وارخت وبطابعها المزدوج ايضا .

وحسان في النهاية وعلى القيثارة الواحدة ، وبتفاعل من ذاته ومجتمعه وعقيدته التي اوقف لها حياته وادبه ، انشد اجمل الصور وابدعها يوم صور واقع النبي « سيدي رسول الله » في ايمانه وجهاده ، وكفاحه .

وبتصوير هذا الواقع اصبح حسان بن ثابت شاعر النبي . الذي نقدمه اليوم مزيجاً من العلم والتاريخ والادب .

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل .

المؤلف

بيروت في ١٩ نيسان ١٩٥٥

حسان بن ثابت الأنصاري

•

التاريخ : حياتـــه ، اتصاله بالغساسنة والمناذرة ، آثاره ، شعره في الجاهلية وفي الاسلام ، ميزته ، منزلته .

هـو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيـــد وينتهي نسبه الى مالك بن النجار ويرجع اصله الى عامر بن مـاء السماء الذي ينتمي الى يشجب بن يعرب بن قحطان ، ويكنى حسان ابا الوليد ، وأبا عبد الرحمن وأبا الحسام ، وأمه الفريعة ابنة خالد ابن قيس بن لوذان وينتهي نسبها الى كعب بن الخزرج ، وقـد اسلمت الفريعة .

فحسان من بني النجار من قبيلة الخزرج ، وانه يمـاني قحطاني يمت بصلة القربى الى آل جفنة الغساسنة ملوك الشام ، وإلى اللخميين ملوك العراق ، ويلتقي هؤلاء جميعاً في نسل عمرو بن عامر بن ماء السماء . ويحدث النسابون ان اكثر المعمور في اليمن كان لكهلان وحمير وكان سيد القوم يومئذ عمرو بن ماء السماء ثم توفي عن اولاد عدة قبل سيل العرم (١) مخلفاً على السيادة اخاه عمران بن عامر

(١) هو السيل الذي نجم عن خراب سد مأرب .

وليس له اولاد ، وكان غنياً موسراً ذا ثروة طائلة ، وله من الحدائق والبساتين ما ليس لأحد غيره من الملوك ، ويذكر الرواة انه كان في قومه كاهنة تدعى طريفة فأنبأته بقرب انهيار السد - سد مأرب - فاتفق مع اولاد اخيه على ان يخاصموه فيتظاهر بالغضب ، ويعرض املاكه للبيع عازماً الرحيل ، وانطلت الحيلة على القوم فابتاع الحميريون بساتينه وقصوره بأسعار جيدة وتفرق مع ابناء اخيه في البلاد ، فنزل ثعلبة العنقاء بن عمرو بن عامر يثرب وهم الاوس والخزرج ، ونزل حارثة بن عمرو بن عامر مكة وهم خزاعة ، وارتحل عمران بن عامر نفسه الى عمان وهم أزد عمان ، واستقر جفنة في الشام وهم الغساسنة ، ويمم لخم العراق ومنهم المناذره .

وقد عرضنا ذلك بايجاز لنشير الى اصل البيوتات الرفيعة التي ينتمي اليها شاعرنا ، وبالتالي الى صلات القربى التي كانت تربطه بآل جفنة ملوك الغساسنة في الشام ، والمناذرة ملوك العراق .

حياته :

فشاعرنا كما تقدم يماني الأصل ، عدناني النشأة ، وهو من بني النجار من قبيلة الخزرج التي تؤلف مع قبيلة الاوس سكان يثرب الذين نصروا رسول الله فسموا بالأنصار ، وقد قدر لحسان ان يشهد جميع الأيام التي كانت بين الاوس والخزرج والتي كان يهود المدينة يوقدون فتنتها ، فيشير الى هذه الأيام في قصائده ، كيوم بعاث ، ويوم سميحة ، ويوم الدرك ، ويوم الربيع ، ويوم

البقيع ،وكان نصيب حسان من هذه الأحداث نصيب الفنان الموهوب الذي ملك عليه الشعر حسه ، وأرهف سمعه ، ودفعه في تؤدة ولين الى هذه الاجواء التي يحلق فيها .

اتصاله بالغساسنة والمناذرة :

وقد اتصل شاعرنا في الجاهلية بملوك الغساسنة في الشام ومدحهم فأغدقوا عليه الهبات والعطايا ، وظلوا يذكرونه ويعرفون له حقه حتى بعد الاسلام ، وبعد ان اصبح حسان شيخاً كبيراً عاجزاً ، فقد حدث جثامة بن مساحق الكناني – وكان عمر بن الخطاب قد بعث معه برسالة الى هرقل ملك الروم يدعوه بها الى الاسلام – فلما انتهى من مقابلته قال له هرقل « هل رأيت ابن عمك (١) هذا الذي جاءنا راغباً في ديننا ؟ » قال لا قال فالقه ، قال الرجل فتوجهت اليه فلما انتهيت الى بابه رأيت من البهجة والحسن والسرور ما لم أر بباب هرقل مثله فلما دخلت عليه اذا هو في بهو عظيم وفيه من التصاوير ما لا أحسن وصفه وإذا هو جالس على سرير من قوارير قوائمه اربعة اسد من ذهب ، ولقد رأيت في قصره من الفخامة والرياش والغلمان والجواري مايدهش وبعد ان ادناني من مجلسه وقضينا وقتاً في الحديث قال للجواري اللائي حوله اطربنني فخفقن بعيدانهن يغنين .

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول.

---

(١) يعني به جبلة بن الأيهم .

ورأيته قد استبشر وهزته هـذه الأنغام العلوية فقال زدنني فاندفعن يغنين :

لِمَنِ الدّار اقفرت بمعان

بين شاطي اليرموك فالصمّانِ

قال أتعرف هذه المنازل قلت لا ، قال هذه منازلنا في ملكنا بأكناف دمشق وهذا شعر ابن الفريعة حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت انه مضرور البصر كبير السن ، قال ياجارية هات فأتته بخمسمائة دينار وخمسة اثواب من الديباج فقال ادفـع هذا الى حسان واقرئه السلام ثم سلمت عليه وانصرفت فلما قدمت على عمر سألني عن هرقل وجبلة فقصصت عليه القصة ، وقال هل سرح معك شيئا : قلت سرح الى حسان خمسمائة دينـار وخمسة اثواب ديباج ، فقال هاتهـــا فبعث الى حسان (١) فأقبل يقوده قائده حتى دنا فسلم وقال يا امير المؤمنين اني لأجـد ارواح آل جفنة فقال عمر رضي الله عنه ، قد نزع الله تبارك وتعالى لك منه على رغم انفه ، وأتاك بمعونة . فانصرف عنه وهو يقول :

ان ابن جفنة من بقية معشر

لم يغذهم آباؤهم باللوم

---

(١) يجمع الرواة ان حسان عاش مائة وعشرين سنة ، ستون في الجاهلية وستون في الاسلام .

لم ينسني بالشام اذ هو ربّها

كلا ولا متنصرا بالروم

يعطي الجزيل ولا يراه عنده

الا كبعض عطية المذموم

واتيته يوماً فقرب مجلسي

وسقى فرواني من الخرطوم .

والى جانب هـــذه الصلات التي كانت لحسان مع الغساسنة ملوك الشام فلقد كان متصلًا ايضا بالمناذرة ملوك العراق ، رغم ما بين الدولتين من عداء مستحكم ولكن المناذرة في عطائهم لحسان لم يبلغوا شأو الغساسنة ذلك لان النعمان بن المنذر آخر ملوكهم كان يفضل النابغة الذبياني ويقرب مجلسه . ويذكر الرواة بأن حسان كان احد الشعراء الذين احتكموا للنابغة في عكاظ (٢)

آثاره :

ديوان شعر في المدح ، والهجاء ، والرثاء ، والغزل ، والفخر ، وهو من اصحاب المذهبات هذه القصائد التي تستحق ان تكتب بماء الذهب لقوتها وجمالها وسلاستها ومطلعها .

---

(٢) راجع الشعراء الاعلام للمؤلف العصر الجاهلي صفحة : ٩٦ .

لَعَمْرُ أَبِيكِ الْخَيْرِ ، يا شَعْتُ مَا نَبَا
عَلَيَّ لِسَانِي فِي الْخُطُوبِ وَلَا يَدِي .

ميزته :

وشعر حسان في الجاهلية ، قد يكون اجود من شعره في الاسلام على رأي الاصمعي حيث يقول « الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل ، فاذا دخل في الخير ضعف ولان ... هذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الاسلام سقط شعره . » وقد قيل لحسان « لان شعرك او هرم في الاسلام يا ابا الحسام . » فقال « ان الشعر يزينه الكذب والأسلام يمنع عن الكذب . » لذلك لم نجد شاعرنا في الاسلام هذا الشاعر الذي يجوب الآفاق ويندفع في الخيال انما هو مصور لحقائق ، ومؤرخ لأحداث ، ولعل ميزة حسان قامت على انه شاعر الرسول .

منزلته :

قال ابو عبيدة : « فَضَّل حسّانُ الشعراء بثلاث : كان شاعر الانصار في الجاهلية وشاعر النبي في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الاسلام . » وقال ايضا « اجمعت العرب على ان حسان اشعر اهل المدر (١) . » ويقول الحطيئة : « ابلغوا الانصار ان شاعرهم اشعر العرب حيث يقول :

(١) – المدر : اي اهل الحضر .

يُغْشَوْنَ حتّى ما تهرُّ كِلاَبُهُمْ
لاَ يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوادِ الْمُقْبِلِ »

وقال ابو الفرج الاصفهاني: « حسان فحل من فحول الشعراء. »
وكان النبي يقول لحسان « اهجم فوالله لشِعرك اشد عليهم من نضح النبل في غلس الظلام. » وقال ايضا « امرؤ القيس صاحب لواء الشعر في النّار وحسان بن ثابت يقود جموعهم الى الجنة. » ويكفي حسان من الفخر ان الله تعالى قال فيه « والشعراء يتّبعهم الغاوون الم تر انهّم في كلّ وادٍ يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون الا الذين آمنوا ... » (٢)

هـذا هو حسان بن ثابت شاعر النبي الذي سنعرضه صورة صادقة في مدحه وفي هجائه وفي مواقفه مع النبي ، وفي تأريخه .

(٢) ـ صورة الشعراء الآية . ٢٢٢ وما يليها ـ

- ١ -

خرج محمد من الغار على غير عادته في هذا اليوم، وقد ارتسمت على وجهه امارات الذعر ، والخوف ، والوجل ، وأحس في نفسه انقباضاً لم يعتده من قبل وراح يمد نظره بعيداً ، في هذه الهضاب المتكئة في تؤدة ورجاء ، وفي كثبان الرمال المترامية الاطراف ، وراح يتطلع الى الأفق البعيد المشرب بلون الحمرة؟ والذي يحمل الفجر في طياته ، فاذا ما انحسر طرفه عن هـــذه الأبعاد التي يمد نظره فيها ، وعن الرمال المترامية حول « غار حراء » أدار النظر في هذا الغار الذي اعتاد ان يرتاده في رمضان من كل عام يعبد فيه ربّه على غير ما يعبده قومه ، ويتفكر في خلـــق السموات والأرض ، الا انه اليوم يحاول ان يفهم سر هذا النـــداء الذي فاجأه في الليل ، واضطرب محمد في وقفته هذه ، وكاد ينكر من أمر هذا النداء الذي اخذ عليه سمعه حيناً وبصره حيناً آخر ، وقد وجم لا يقول شيئاً ، وأنى له ان يقول وقد تملكه شيء غريب لم يجد له تأويلاً ، ورابه هذا الأمر الذي فوجيء به وهو ينعم بنوم هادىء ملء جفنيه ، وانه ليسترجع في تأمله هذا ، ما دار بينـه وبين صاحب النداء من حديث ، وانه ليتراءى له اشبه ما يكون

بطيف قد غشى عينيه فحسر نظره عن كل شيء حوله ويبدو وقد أمسك بيده صحيفة بيضاء وأطبق بيديه على خناقه وهو يقول له اقرأ ، ويجيب محمد مأخوذاً تائهاً ما اقرأ ، او لست بقارىء ، وصاحب الصحيفة البيضاء يكاد يأتي على انفاسه في اطباقه حول عنقه حتى اذا ما آلمه بعض الشيء ، ارسله في رفق ودعة ، وعاد يكرر له القول « اقرأ » ويجيبه محمد في دعة ورحمة وقد تملكه خوف شديد من ان يخنق مرة ثالثة ، ماذا اقرأ واذا بصاحبه يقول « اقرأ باسمِ ربّك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسانَ ما لم يعلم . » وهاك محمد في تأمله الطويل عند باب الغار ، يردد القول في ايمان ، وفي خشوع ويردده في شيء من استفهام ، ويدور حول نفسه متسائلاً من جديد وقد تملكه ما يتملك عادة النفوس الحائرة ، وقد اطبق عليه شعور غريب دفعه ان ينطلق من الغار ، وان يبتعد عنه وان يتيه في شعاب مكة ووهادها ، ينظر الى هذا الكون العظيم نظرة المدرك لحقيقة يؤمن بها ، ويعمل لها مخلصاً منذ ان فهم الحياة ، ودخل غار حراء متعبداً باحثاً عن سر ، وكأن نفسه الكبيرة في سياحته في شعاب مكة ووهادها جعلته يتيه بين حقيقة النداء الذي فاجأه في الليل ، وبين ما يسعى اليه في عبادته وتحنثه في الغار ، وخاف ان يختلط عليه الأمر ، لذلك رغب في ان ينكر النداء ويشك به لكي لا يأخذ نفسه بما لم تتفهمه وتدركه ويطيل الاقامة في هذه الشعاب ويتناسى بيته وأطفاله ، واذا بزوجه تبعث من يبحث عنه في مكان عبادته

فلا يجده ، ومحمد ما زال في شعاب الجبل متسائلاً حائراً غارقاً في صور حبيبة الى قلبه رغم ما يأخذ نفسه من خوف وإذا بصوت يناديه ، ويناديه رفيقاً به محباً له ، ويتطلع محمد نحو السماء فيرى صاحب النداء ، ويلبث غير بعيد فيدرك انه جبريل ، وهو حديث العهد به ، حتى إذا انصرفت عن عينيه صورة الملك الكريم الذي اقلقه حيناً ودفعه الى التفكير حيناً آخر امتلأت نفس محمد بهذا الأمر الذي فرض عليه ان يتلوه ، وانه لراض عن هذا الأمر يردده في فهم ، « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق . » ويقرأ محمد من جديد ، ويتجه نحو بيته ليجد عند خديجة الكبرى ، ام المؤمنين فيما بعد الامن والدفء ، والراحة والدعة ، وإذا به يحس برعدة تهز كيانه ، وتضعف من قواه ، ويطلب الى زوجته ان تزمله كأن الحمى قد أخذت به ، وتسرع الزوجة الكريمة الى خدمته والى رعايته ، وتروح تخفف ما به وتسأله رفقاً بنفسه ، ورحمة بها ، واذا به يحدثها حديث الغار ويفضي اليها بمخاوفه ، وما يهز كيانه من شعور وترنو اليه بعينيها وفيهما معاني الحب ، والرحمة ، والسمو ، وتربت على كتفه تهدىء من روعه وتقسم له انه نبي هذه الامة التائهة ، وان الله لن يخزيه ، « فهو يصل الرحم ، ويصدق الحديث ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ويعين على نوائب الدهر . »

ويتطلع محمد في وجه خديجة المشرق كالفجر ، ويقرأ على قسماته الصدق والاخلاص ، وانها لتثبته على الحق الذي كُلِّف به ، وانه لجدير به ان يحمل رسالة ربه ، وان يبلغ تلك الرسالة

بصدق ، وعزم ، وتواضع . ويحس محمد ان جسمه متعباً يحتاج الى قسط من الراحة ، بعد ان ذهب عنه الروع ويجد في كنف زوجه الملاذ لهذا النوم الهادىء الذي ينشده ، وينام محمد الى حين ليستيقظ بعد ذلك على نوع من الجهاد جديد .

- ٢ -

ويستيقظ النبي ، وتؤمن به زوجه انه رسول الله ، ويعلمه ربه الصلاة ويأخذ محمد في نشر رسالته فيؤمن به مولاه زيد بن حارثة ، وتكون خديجة قد نشرت النبأ في شيء من تحفظ ، وسألت قريبها ورقة بن نوفل « وكان عالماً من كبار الكهنة » في أمر هذا النداء الذي هبط على محمد فيؤكد لها نوفل انه رسول الله بما لديه من علم وأدلة وبما يتوقع ذلك من الانجيل الذي يؤمن به ، ويحدث محمد صاحبه وخليله أبا بكر بما رأى ، وأبو بكر كان « مؤلفاً لقومه مُحبّا سهلًا ، وكان أنسب قرشي لقريش واعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلًا تاجراً ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يألفونه لغير واحد من الامر لعلمه وتجارته وحسن مجالسته . » ويدعو ابو بكر عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبد الله ، وسعد بن ابي وقاص والزبير بن العوام ان يؤمنوا بهذه الدعوة التي هبط بها الوحي على محمد ، فينقادون له ويسلمون لله رب العالمين ، ويدخل في الاسلام ابو عبيدة بن الجراح ، ويؤدي هؤلاء المسلمون الاولون الصلاة في شعب مكة ، وينزل الوحي على محمد من جديد يحمل

له قول الله تعالى . « وانذر عشيرتك الاقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل اني بريء مما تعملون . (١) »

ويقف محمد على الصفا يهتف ويسارعون اليه ويسألون ما به فيقول « أرأيتم لو اخبرتكم ان خيلاً بسفح هـذا الجبل اكنتم تصدقون ، قالوا نعم انت غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط فيقول النبي اني نذير لكم بين يديّ عذاب شديد يا بني عبد المطلب ، يابني عبد مناف ، يابني زُهرة ، يا بني تَيم ، يا بني مخزوم ، يا بني اسد ان الله أمرني ان انذر عشيرتي الاقربين ، واني لا املك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا ، إلا ان تقولوا لا إله إلا الله » او كما قال ، فينهض ابو لهب وكان رجلاً بديناً سريع الغضب ويصيح « تباً لك سائر هذا اليوم ألهذا جمعتنا » وارتج على محمد ، فنظر النبي الى عمه ثم ما لبث ان جاءه الوحي بقوله « تبّت يدا ابي لهب وتبّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب (٢) » ومنذ ذلك اليوم اخذت الدعوة تلقى عناداً وخصومة وعنفاً وشدة من ابي لهب ، وابي سفيان واشراف قريش واحفادها ، واخذ النبي يصمد لهذه الخصومة القوية العنيفة التي لا تعرف هوادة او لينا ، وتجتمع قريش فتتألب على النبي ، وتروح فتتصل بآله ، فيمنعون محمدا من هذه القبائل عندما يعرفون صدق دعوته وثبات عزيمته ، وانه لو وضعوا الشمس عن يمينه والقمر عن يساره لن يرجع عن هذه الدعوة الى ان يظهرها الله او يهلك

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٢) سورة اللهب الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ .

دونها ، وتمعن قريش في أذى النبي واصحابه ، ويصبر المسلمون على الضيم ويعلن لهم محمد في هذا الصبر الذي اخذوا به انفسهم ان « من حسن ايمان المرء ان يكون له جار يؤذيه » ويتقبل هؤلاء الاذى بالرضا وبالايمان ، ويؤمن في هذه الفترة حمزة عم النبي ، وتتواكب الاحداث على الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون ماضون في دعوتهم ، ناشرون رسالة الحق والخير والفلاح ، ويرى النبي ما يلحقهم من أذى قريش ، فيطلب الى نفر منهم ان يهاجروا الى الحبشة فيذعنون للأمر ويلقون في كنف النجاشي الرعاية والحماية ويطمئنون هنالك الى دينهم الذي ارتضوا ، وتقوى الدعوة في مكة وتأخذ سبيلها الى الانتشار ، ويؤمن عمر بن الخطاب ، وتعتز الدعوة بايمانه ويؤدي المسلمون الصلاة في الكعبة وحول البيت لاول مرة ، ويظل المسلمون على هذه الحال ، ومحمد يلقى عنتاً من المشركين ومن امجاد الجاه والثروة والدين ؟ ويزداد مع ذلك اقتناعاً ورضى ، ويأخذهم بما قدر له بالعفو ، والمغفرة ، وبالرحمة ، والمشركون مع هذا قد فرضوا عليه وعلى اصحابه حصاراً شديداً ، ومقاطعة لا تعرف ذوقاً ولا رحمة فلا يكلمونهم ولا يبيعونهم ولا يبتاعون منهم ، ولا يزوجوهم ولا يتزوجون منهم ، ويبقى النبي واصحابه ثلاث سنوات متتابعة في شعب مكة يعانون العذاب والحرمان ، والجوع الوانا ، ومحمد يزداد واصحابه مع ذلك ايمانا وفي الحق جرأة ، وكان يهبط مكة في الاشهر الحرم يدعوا القبائل الى اعتناق الاسلام فتلقى دعوته عند بعضها رضاً وقبولاً — وتأخذ هذه الجماعات على محمد واصحابه

بعد ان بلوا سرائرهم وعرفوا صدق اخلاصهم ـ الرحمة ، وابو لهب وابو جهل واتباعها لايزدادون الا عتواً وظلماً وعدوانا . ويجتمع خمسة من رجال قريش وسادتها وعلى رأسهم هشام بن عمرو ويتفقون فيما بينهم ان ينادوا بنقض الصحيفة التي اجمعت فيها قريش على مقاطعة الرسول ، ويغدو زهير بن ابي امية ويطوف بالبيت سبعاً ثم ينادي « يا أهل مكة ، انأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ! والله لا اقعد حتى تُشق هذة الصحيفة القاطعة الظالمة ! وما كاد ابو جهل يسمعه حتى صاح به : كذبت والله لا تُشق ! فيتصايح زمعة وابو النجذيّ والمطعم وهشام بن عمرو وكلهم يكذبون ابا جهل ويؤيدون زهيراً . وادرك ابو جهل ان الامر قضى بليل ، وان القوم اتفقوا عليه ، ويخاف ابوجهل ويتراجع المطعم ليشق الصحيفة فيجد الأرضة قد اكلتها الا فاتحتها « باسمك اللهم . » وبذلك اتيح لمحمد وأصحابه ان يعودوا من الشعب الى مكة وان يبيعوا قريشاً ويبتاعوا منها ، وان بقيت صلات الفريقين كما كانت وبقي كل منهم متحفزاً ليوم يستعلي فيه على صاحبه »

وتتواكب الأحداث على النبي من جديد فيموت عمه ابو طالب ، وتموت زوجه خديجة التي كانت له في الملمات وفي الشدائد ، ويخرج محمد الى الطائف بعد ان رأى من عنت قريش وكفرها ، ويدعو اهل هذه البلدة الى الاسلام فيجدهم اشد كفراً من قريش وأكبر عتواً من اهل مكة ، ويعود النبي الى مكة ، ويروح يدعو القبائل في موسم الحج ، ويأتي كندة في منازلها ،

وكلباً ،وبني حنيفة ،وبني عامر بن صعصعة فلم يسمع له منهم احد ، وترده بنو حنيفة رداً قبيحاً ، وبينا يعاني النبي من امر قومه ما يعاني وفي ليلة مباركة يلقاه جبريل فاذا هو يجوب بيت المقدس ويعرج الى السموات السبع لتكتحل عيناه صلى الله عليه وسلم بالنور الالهي السرمدي وليأخذ عن ربه ما يأخذ الأنبياء عادة عن الاله ذي القوة ، ويكاد امر الاسراء والمعراج يحدث فتنة وشقاقاً بين المسلمين من جهة وبين قريش من جهة ثانية، ويأتي موسم مكة ويلقى محمد نفراً من الخزرج فيدعوهم الى دين الله فيؤمنوا به في بيعة العقبة الاولى ، ويعودون الى يثرب ينشرون الدعوة حتى اذا ما استدار العام ، علم محمد ان خمسة وسبعون مسلماً منهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان قد وفدوا الى مكة فيلتقي بهم تحت جنح الظلام ،ويبايعونه بيعة العقبة الثانية، ويبايعهم النبي« على ان يمنعوه مما يمنعوا منه نساءهم وابناءهم . »

وتعلم قريش بأمر هذه البيعة الثانية وهي بين مصدق ومكذب وتحاول ان تلحق باليثربيين لتقف منهم على حقيقة الامر فتلقى سعد بن عبادة ، فيأخذونه ويردونه الى مكة ويعذبونه عذاباً شديداً حتى يجيره جُبير بن مُطعِم بن عديّ والحارث بن امية ، لأنه كان يجير لهما من يخرجون في تجارتهما الى الشام حين مرورهم بيثرب .

ويأمر النبي اصحابه بالهجرة الى يثرب متفرقين ، ويأخذ هؤلاء يهاجرون فراداً او نفراً قليلاً ، وتفطن قريش للأمر فتحاول ان ترد كل من تستطيع رده الى مكة لتفتنه عن دينه او لتعذبه ،

وبلغت من ذلك انها كانت تحول بين الزوج وزوجته ان كانت من قريش ومع ذلك لم تقو ان تحول بين المسلمين والهجرة الى يثرب ، وجاء ابو بكر يستأذن النبي في الهجرة ، فيقول له محمد « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً . » ويتربص ابو بكر ، وتجتمع قريش تفكر في الامر من جديد ، ويتفق رأيها على ان تأخذ من كل قبيلة شاباً وان يعطى كلّا من من هؤلاء سيفاً بتاراً فيضربوا محمداً جميعاً ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعاً فيرضوا فيه بالدية وتستريح قريش ، فاذا ما دفعتهم الاحلام الى هذا الرأي الذي اجتمعوا عليه ، وانتقوا الرجال الذين اخذوا في محاصرة بيت النبي لكي لايخرج بليل ، جاء امر الله بالهجرة . وفي غفلة من هؤلاء الذين يرابطون حول البيت ، خرج النبي الى ابي بكر — وترك علياً رضي الله عنه متدثراً بدثاره — واتجها في طرق ملتوية بين الشعاب الى يثرب ، وكتبا اروع قصة في هذه الهجرة من أجلّ ما عرف التاريخ في قصص المغامرة والبطولة في سبيل الحق والعقيدة .

- ٣ -

في المدينة حياة لم تعرفها من قبل ، واليثربيون قد احسوا اليوم امنا ، او شيئاً من أمن وقد اطمأنت نفوسهم الا من شك قليل يساورهم ويقلقهم ويدفعهم ان يتجمهروا ، ويتشاوروا ، ويستطلعوا من نبأ الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم ، وقد ترامى اليهم فيما ترامى من الأخبار ، انه قد خرج وصاحبه من « قباء » بعد ان مكث فيها اياماً اربعة واسس فيها مسجدها ، وانهم لكذلك في هذه الحياة الجديدة التي اطلت على مدينتهم ، والتي اثرت في حياتهم والتي دفعتهم ان يفكروا في امرهم على وجه جديد من النظم والمبادىء التي لم يألفوها من قبل ، ولم يطبقوها فيما بينهم ، وقد خشعت قلوبهم وترنحت اعطافهم ، لذكر الله ، وذكر رسوله وقد غشيهم من الذكر ما يغشى النفوس المطمئنة الآمنة من وسن وما يأخذها من اللامبالاة عندما تلقي عن مخيلتها صوراً من الحياة الدنيا ، وتتعلق بصور اخرى اشد جمالاً ، وابدع تصويراً ، واقوى فتنة ، واحب ذكرى ، بلى وانها لكذلك في هذه الحياة الجديدة ، وفي هذه القيم الجديدة ، واذا صوت يناديهم ، ويناديهم من قريب : « يابني قيلة هذا

صاحبكم قد جاء . » وكان هذا الصوت يدب فيما بينهم ايذاناً لهذه الجموع المحتشدة المتراصة ، ولهذه الكتل المتدافعة المتزاحمة ان تزحف في بطء ، وتندفع في ثقل وقد لاح لها عن بعد «رسول الله» وانها لتستقبله مزهوة بشرف استقباله ، فخورة به وهي تنشد نشيدها ، وتنشده في امل ورجاء وحب وولاء ، وقد اخذت تمد اصواتها في هذا الغناء الجميل الذي كان ينبعث قوياً رخياً ، والذي كان يخفف من قوته ورخامته الايمان والشعور الأقوى الذي اخذ يخالج هذه النفوس المؤمنة فيضعف الصوت حيناً ويبعثه قوياً رخياً احياناً اخرى في نوع من الانطلاق جديد يمازجه صوت النساء والأطفال فيزيد في جماله ويزيد في رخامته .

طَلَعَ ٱلْبَدْرُ عَلَيْنا مِنْ ثَنِيَّاتِ ٱلْوداع
وَجَبَ الشكْرُ عَلَيْنا مَا دَعى لِلّٰه دَاع .

ويتطلع محمد نبي الله ومصطفاه ، ويمد نظره في هذه الجموع المحتشدة التي جاءت تحييه ، وجاءت تستقبله ، فترحب باكرم من دخلها ، وارفع من وطأت اقدامه ارضها ، فتدمع عيناه ، لهذا الاستقبال المهيب ، ولهذا النصر ، ويروح فيشكر ربه في تؤدة ، ويشكره في صمت ، ويشكره في خشوع .

حتى اذا قضى محمد يومه في المدينة ، وزار مسجد المؤمنين في « وادي رانونا » وأمر ببناء مسجده في ارض ليتيمين من بني النجار راح يستقبل الوفود ويبايعها ويبايع معها حسّان بن ثابت ،

شاعرنا ،وقد اخذ يستمع اليه ينشده اعجابه به واطمئنانه اليه ، وكيف استأثر بقلبه لكمال صفاته ، هذه التي التقى عندها جمال الخلق وجمال الخلق وانه لم ير اجمل منه على الاطلاق حتى ولم تلد النساء علي مثاله فهو مبرأ من كل عيب ، كامل دونما نقص ،وكأنه صلى الله عليه وسلم ، خلق على الصورة التي ارتضاها لنفسه وشاءها لذاته وارغبها لكماله حتى يجمع الى ذاته الجمال على اتم ما يكون الجمال ، والكمال على اكمل ما يكون الكمال .

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي

وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ

خُلِقْتَ مُبَرَّءًا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ

كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كما تَشَاءُ .

- ٤ -

أذن لحسان بن ثابت الشاعر الذي عرفته الجزيرة قبل الاسلام فحلاً من فحول الشعراء الجاهليين ، وعرفته في بلاط الغساسنة مادحاً ، وفي بلاط المناذرة متوددا ، وعند النابغة حكم « عكاظ » محتكماً ، قلت اذن له منذ هذه اللحظات التي وقف فيها بين يدي سيد الكائنات صلى الله عليه وسلم ان ينسلخ عن تاريخه ، وعن حياته ، او ان ينسلخ عنه تاريخه وحياته في تاريخه ليلازم منذ اليوم سيدي رسول الله ، ويصبح منذ اليوم شاعر النبي يرافقه في حياته الجديدة التي كتبها الله له ، ويرافقه في جهاده ، ويرافقه في امور كثيرة ، فيؤرخ حياة النبي الكريم ، ويؤرخ مواقع المسلمين فيكون في شعره الصورة المثلى الصادقة التي لم يبدعها حسان لشيء في نفسه كما يبدع الشعراء الصور ويزينوها ، ويكون الى جنب ذلك المؤرخ الأمين ايضاً لحوادث عصره والمساير لمراحل الدعوة الاسلامية التي غيرت من وجه التاريخ ، قلت يرافقه في حياته ويرافقه في جهاده ، ولعل حسان كان جديراً ان يرافق النبي وان يبعث هذه الحقبة من التاريخ الاسلامي صادقاً دونما تفنن ودونما ابداع ، ودونما تزويق ، فيجعل من شعره أداة تنعكس عليه صفات النبي ومثاليته ، فتكون هذه الصفات وهذه المثالية المثال البارز لحياة الرسول الاعظم .

وحسان يرى النبي كريم المزايا ، حميد الصفات ، او انه يراه المثال الاعلى لهذه المزايا الكريمة ، وهذه الصفات البارزة الحميدة ، فهو ناصع البياض في خلقه ، ناصع البياض في صفاته وافعاله ، وافعاله هذه تثبت انه رسول الله ، ويشهد الله في ذلك ويقره بما وسمه بوسام النبوة ، هذا الخاتم المقدس ، او هذه الشامة الحضراء او السوداء التي تقع عند غضروف كتفه الايسر ، التي قيل انه ولد عليه السلام به ، او انه بدا في مكانه بعد ولادته ثم هو يراه على شيء من كثير من الرفعة والمجد وكيف لا يراه كذلك وقد ضم الاله اسم النبي الى اسمه تعالى ، فالمؤذنون إذ ينادون الى الصلوات الخمس يشهدون ان لا إله إلا الله ، ويقرنون هذه الشهادة بأن محمدا رسول الله فيردد المسلمون في اصقاع الارض جميعاً هذه الشهادة ويؤمنون بها ، وانه تعالى وهو محمود شق له من اسمه صفة تميزه عن سائر البشر ، وترفع من قدره فسماه محمداً وبرّأه من كل عيب .

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبوَّةِ خَاتَمٌ
مِنَ ٱللهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ

وَضَمَّ ٱلإِلَهُ ٱسْمَ النَّبِيِّ إِلى ٱسْمِهِ
إِذا قَالَ فِي ٱلْخَمْسِ ٱلْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ

وَشَقَّ له من اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ
فَذُو ٱلْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ

- ٥ -

وحسان بعد ان يبلغ هذا المبلغ في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يروح فيصور بعد ذلك اوضاع الجزيرة العربية واوضاع اهلها وكيف تباعد خبر السماء عن الارض وانقطعت الاسباب بينهما ، وكيف جاء النبي الاكرم يدعو الناس الى عبادة الله ، بعد هذه الحقبة الطويلة التي انقطع فيها خبر السماء عن الارض ، وقد عم اليأس النفوس ، وتاه العباد حتى انهم اخذوا يصنعون الاصنام بأيديهم ثم يخرون لها ساجدين ، فإذا النبي يستحيل صلى الله عليه وسلم مصباحاً منيراً ينير ما اكتنف العالم من ظلمة ، ويبدد ما علق في قلوب الناس وارواحهم من جهالات ، وكأنه وهو السراج في هذه الظلمة التي تكتنف الكون يلوح كسيف ابيض هندي صقيل ، لا يضرب ، ولا يبطش ولا يظلم انما يدعو الى الحق ، ويضيء للناس السبيل ويشرح لهم تعاليم الاسلام وهديه ، وما في الاسلام من خير وعقائد وشرائع ونظم ، وما في النظم من خير للبشرية ، ان هي عملت وسارت على نهجها ، سعت وراء الصلاح في الحياتين الدنيا والآخرة ، وعند الله الجزاء جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ، ومن لم يستجب

لدعاء الحق خسر الدارين جميعاً ، وكانت له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا ، وان حسان ليشكر الله على هديه ويشكره على نعمة الاسلام .

نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَفَتْرَةٍ
مِنَ الرُّسْلِ وَالأَوْثَانُ فِي الْأَرْضِ تُعْبَدُ
فَأَمْسَى سِرَاجاً مُسْتَنِيراً وَهَادِياً
يَلُوحُ كَمَا لاحَ الصَّقِيلُ الْمُهَنَّدُ
وَأَنْذَرَنَا نَاراً وَبَشَّرَ جَنَّةً
وَعَلَّمَنَا الإِسْلَامَ فَاللهُ نَحْمَدُ .

وشاعرنا اذا خلص من ذلك ، واشار ولو في اقتضاب الى المبادىء الاسلامية التي جاء بها النبي المصطفى ، يعلن ايمانه بالله ، ويعلن انه إله الخلق ، خلق العالم وأبدعه وأوجده وهدى الناس ، وانه ليشهد ذلك ما قدر له ان يحيا ، وانه يقدسه تعالى ويجله ، ويرفعه عن اقوال هؤلاء الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ، تبارك الله عما يصفون ، فهو اجلّ واعظم ، له عباد يأتمرون بأمره ويعملون بشريعته ، خلقهم كيف يشاء ، وابدعهم كيف يريد على شكل جميل « انا خلقنا الانسان في احسن تقويم » ثم مَنّ عليهم فأغدق عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وسخر لهم ما في الارض جميعاً فإياه يعبدون ، وتعالى يستهدون .

وأنتَ إلهَ الخَلْقِ رَبِّي وَخالِقي
بِذَلِكَ مَا عَمَّرْتُ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ
تَعالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا
سِوَاكَ إِلٰهاً أَنْتَ أَعْلَى وَأَمْجَدُ
لَكَ الخَلْقُ وَالنَّعْمَاءُ وَالأَمْرُ كُلُّهُ
فَإِيَّاكَ نَسْتَهْدِي وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ.

وها نحن بعد ان عرضنا نماذج لشعر حسان في مدح الرسول الاعظم ، نود ان نشير الى ان هذا النوع من المدح كان جديداً في الادب العربي ، جديداً في ذاته ، جديداً في اسلوبه ، فحسان في مدحه للرسول لا يذهب مذهب الشعراء الذين سبقوه ، ولا يتبع مذهبه الخاص الذي عرف به في الجاهلية ، والذي مدح به الغساسنة والمناذرة ، فهو لا يتبع شيئاً من هذا على الاطلاق حتى ولا يمر به ، ذلك لأن هذا الشعر وهو جديد له اسلوبه ، وله طابعه الخاص الذي لا يجوز له ان يساير مدح الشعراء ، ذلك اذ ان حسان يمدح الرسول فهو يمدحه لغاية في نفسه ، لا يود منه عطاءً ولا يطلب منه ثروة او جاهاً كما كان يطلب الأعشى والنابغة والحطيئة وغيرهم ، وكما اعتاد حسان ان يفعل في الجاهلية ، وهو لا يمدحه ليشرفه او ليرفع من قيمته — كما كان فعل المتنبي مثلاً فيما بعد عند مدحه لكافور الأخشيدي — فالنبي شريف في اصله

وبيته من اشرف بيوتات قريش التي كانت اشرف العرب، والنبي عظيم في قومه ، له صفاته الحميدة ، وأخلاقه الرفيعة ، وذكره بين عشيرته فهو من هذا القبيل لا يحتاج الى شيء من هـذا ، لذلك كان على حسان ان يذكر صفاته ، وان يمدح اخلاقه، وان يمتدح الرسالة الاسلامية التي جاء بها النبي ، والنبي قد مهـد فيها للناس سبل الخير والنجاة التي اخرجهم بها من الظلمات الى النور ومن الكفر الى الهداية ، والتي جاءتهم بعد فترة من الرسالات ، وبعد يأس كاد يقضي عليهم كجماعات وافراد فحسان كان في مدحه للنبي المختار يتبع اسلوبا جديداً لا يساير اسلوب من سبقه وهو في اسلوبه جديد بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، جديد في الفاظه ، وجديد في تعابيره ، وجديد في اشاراته ، وجديد في تصاويره ، ويزيد هذا الشعر جمالاً ، الايمان والعقيدة الراسخة التي لا يأتيها الباطل ، فتراه رقيقاً لطيفاً قريب الفهم، سريـع الحفظ ، متين الاسلوب ، بديع التركيب تمازجه نغمة جميلة هي نغمة الدين الجديد والايمان به .

وشَقَّ لَهُ مِنِ أَسْمِهِ لِيُجِلَّهُ
فَذُو ٱلْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ.

ثم كان على حسان بعد ذلك ، بعد ان مدح الرسول الأعظم هذا المدح الجميل المتين ، الجديد في اسلوبه ، والجديد في غايته، والجديد في كل ما يرمي اليه ، ان يدافع عنه امام خصومه الذين راحوا يعاندونه ، ويقاومون الرسالة السمحاء التي جاء بها ، وكان

عليه في هذا الدفاع ان يتبع اصحاب النبي الذين آمنوا به والذين جاهدوا في سبيل الله ، ولكن لم يك حسان هذا الذي يقوى على خوض المعارك ، فهو لم يألف حياة الاعراب في جاهليتهم ، وكان بما فطر عليه من احساس، وذوق ، ورقة ، وبما اكسبه الاسلام من شعور ورحمة ورأفة ، مثالاً بارزاً على الاحساس والرحمة والرأفة ، حتى انه لم يرغب ان يسلب مشركاً فلقدحدثت صفيّة بنت عبد المطلب قالت : « كنت يوم الخندق (١) في فارع حصن حسان بن ثابت وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان فمرّ بنا رجل من اليهود فجعل يطوف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة (٢)، وقطعت ما بينها وبين رسول الله،وليس بيننا وبينهم احد يدفع عنا ، ورسول الله والمسلمون في نحور عدوهم ، لا يستطيعون ان ينصرفوا الينا عنهم إذا أتانا آت :فقلت يا « حسان ان هذا اليهودي كما ترى يطوف بالحصن ، واني والله ما آمنة الا ان يدل على عوراتنا مَن وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله واصحابه ، فانزل اليه فاقتله . » فقال حسان : « يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، لقد عرفت ما أنا بصاحب

---

(١) موقعة الخندق : بلغ النبي ان قريشا مع احياء العرب قد خرجت في اربعة آلاف مجند ، وثلاثمائة جواد ، وخمسمائة والف ممتط بعده تريد المسلمين في « يثرب » فأمر اصحابه بحفر خندق حول المدينة ، وحصن البيوت وكان الخندق يبعد عن المدينة نحو فرسخين ، وبهذه الطريقة جابه النبي جماعة قريش التي لم تتمكن من اجتياز الخندق .

(٢) بنو قريظة : يهود في المدينة وقفوا على الحياد يوم الخندق وفقا لعهد بينهم وبين المسلمين ومن ثمة نقضوا العهد فيما بعد .

هذا . » فلما قال ذلك ولم ار عنده شيئاً اعتجرت (١) ثم اخذت عموداً ونزلت اليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقلت « انزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعني من سلبه الا انه رجل . » قال : « ما لي الى سلبه حاجة يابنة عبد المطلب . »

فهذا حسان صورة بارزة لما يحس من شعور وما يخالج قلبه من اشفاق ورحمة ورأفة حتى ان كثيراً من المؤرخين استغلوا موقفه هذا فوصفوه بالجبن وهم لو درسوا حسان دراسة نفسانية مبنية على «علم النفس» بعيدة عن المؤثرات الشخصية ، والرغائب الذاتية ، وبكلمة اخرى هم لو انصفوا حسان لما قالوا انه جبان ؛ والدافع الذي يدفع بنا الى ان نبرىء حسان من الجبن انه شاعرٌ ، وشاعر قبل كل شيء بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى وانه شاعر من سكان الحضر قضى حياته الجاهلية في بلاطين عظيمين ، بلاط الغساسنة في الشام ، وبلاط المناذرة في العراق ، وانه نعم في كلا البلاطين ونادم ملوكهم ، وشاركهم في حياتهم وما في حياتهم من ترف ورخاء ، فكيف يريدون منه بعد ذلك وقد لازمته بعض صفاته ، ثم جاءه الاسلام بصفات اخرى مكنت فيه فطرته ، كيف يريدون منه ان يقاتل ، وكيف ينعتونه بالجبن . . ؟

وبعد ، فهل ينصف المؤرخون والنقاد حسان . . . ؟ وحسان ان انصفه المؤرخون والنقاد او لم ينصفوه فهو شاعر الرسول الأعظم ، دافع عنه بشعره ودافع عنه بأدبه واوقف حياته في

١ ــ اعتجرت المرأة : لبست المعجر وهو ثوب تشده على رأسها .

سبيل دعوته ، وكان في ذلك واضع نواة الشعر السياسي الذي لم يعرفه الأدب العربي قبل حسان ، ذلك ان الجاهلية مع ما حدث فيها من منافرات ، وخصومات ، وعداءات ، لم تحفل بهذا النوع من العراك السياسي ، والعراك الديني الذي حفل به عصر صدر الاسلام ، ذلك لان المنافرات والخصومات في الجاهلية لم تكن ذات صبغة عقائدية كتلك الخصومات التي شهدها المسلمون ، وبالتالي كانت فردية او قبلية عصبية ، فالفردية منها كثيرة لم تجبر العرب جميعا على خوض حروب كلامية ، لان معاركها لم تتصف بصفة الحروب الوطنية او القومية ، ومن هنا انعدم الشعر الملحمي ايضاً عند العرب ، واما القبلية منها فالتاريخ يذكر تلك المنافرة التي وقعت لتغلب وبكر في حضرة عمرو بن هند ولم يكتب لها ان تترك اثراً ما في تاريخ الأدب العربي ، اعني في الشعر السياسي وما عدا ذلك فلم تعرف الجاهلية عراكاً سياسياً احتدم فيه القول كالذي عرفه هذا العصر الذي نؤرخه ، وان كان الصدر الاول للعصر الثاني للاسلام قد شهد عراكاً عنيفاً احتدم فيه القول وعنفت فيه اللهجة وكاد يخرج عن حدود القول واللهجة ... ؟

فهذا إذن حسان شاعرنا ننصفه من المؤرخين والنقاد وننصفه للتاريخ وهو وان لم يكتب له ان يدافع عن نبيه بحسامه فقد دافع عنه بشعره .

- ٦ -

لم يكن حسان شاعر النبي من رجال الحرب ، ولم يكن من هؤلاء الصناديد المغاوير الذين يخوضون المعارك بقلوب ثابتة ، فهو لم يأخذ نفسه بهذا اللون من البطولة التي عرفت بها العرب ، ولعل النقاد من اجل ذلك اتهموه بالجبن ، وحسان وإن لم يكن من هؤلاء الأبطال ولم يدافع عن نبيه بحسامه فلقد دافع عنه بشعره كما قدمت وجابه بهذا الشعر القوي المتين اعداءه وخصومه وهجاهم اشد الهجاء وأقواه ، ولم يتعرض في هجائه الى ما تعرض اليه الشعراء ، بل ذهب في هجائه مذهباً جديداً كما ذهب في مديحه ولعل ابرز مثال لهذا الهجاء المقذع الذي يصور مذهب حسان هو ما هجا به ابا سفيان فقد صوره تصويراً غريباً حتى انه بما اوتي من حنكة وبما أوتي من حكمة جعله بعيداً عن هذه الدوحة التي يشرفها رسول الله ، بعيداً عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمت اليه بصلة من الصلات ، ولا يدنو منه بما قدر للناس ان يقترب بعضهم من بعض ، وانه في هذه العائلة ، او في هذه الدوحة كتلك الحشرة التي يسمونها « قُرْد » هذه التي تلصق بالانسان فتلازمه وهي ليست منه ، وابو سفيان ليس له في هذه الدوحة الشريفة المنبت صلة

بينة واضحة ، وإن حسان ليؤكد له بعد ذلك ان من اشرف اشراف بني هاشم ، فاطمة بنت مخزوم جدة النبي صلى الله عليه وسلم لأبيه ، لا والده العبد الخنوع . وبهذا الاسلوب الجديد الذي اعتمده حسان في الهجاء يهجو ابا سفيان رأس الكفر ، الذي كان يؤلب قريشاً على النبي ليظل زعيم الجاه والثروة والأمجاد الزائفة فينال منه ، ويجعله حقيراً ذليلاً بين قومه .

لَقَدْ عَلِمَ ٱلأَقْوَامُ أَنَّ ابْنَ هَاشِمٍ
هُوَ الغُصْنُ ذُو الأَفْنَانِ لاالواحِدُ الوَغْدُ

وَمَا لَكَ فِيهِمْ مَحْتِدٌ يَعْرِفُونَهُ
فَدُونَكَ فَٱلْصَقْ مِثْلَ مَا لَصِقَ ٱلْقُرْدُ

وَإِنَّ سَنَامَ ٱلْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ وَوَالِدُكَ ٱلْعَبْدُ.

وترى حسان لم يكتف بذلك بعد ان ابعده عن قرابة النبي المختار ، وأبعده عن هذه الدوحة ذات الأفنان التي يفتخر بها العرب ويفاخرون ، وبعد ان جعله من هذه الدوحة كما تكون هذه الحشرة ، بل حطّ من قدره عندما لم يساو بينه وبين العباس وضرار ابني عبد المطلب ، الذي يرى امهما كريمة من كريمات

نساء العرب بينما كان ابو سفيان فى رأيه لئيماً شحيحاً هجيناً (١) ابن امة وانه ليقر هنا مع هذا – ولعله ذم في معرض المدح – انه منوط بآل هاشم ، ملحق بهم كالقدح الذي يفرده الراكب عن سائر متاعه ويعلقه في آخر رحله ويجعله خلفه ، ثم يقول له ، ويقول له في تؤدة ولين انك مهما بلغت من المجد ومهما حاولت ان ترفع رأسك بين عشيرتك فأنت مغلوب على أمرك ، ما دامت امك هذه التي يسمونها سمية تارة ، او سمراء تارة اخرى .

وَمَا وَلَدَتْ أَفْنَاءُ زُهْرَةَ مِنْكُمُ
كَرِيمًا وَلَمْ يَقْرَبْ عَجَائِزَكَ ٱلْمَجْدُ
وَلَسْتَ كَعَبَّاسٍ وَلَا كَٱبْنِ أُمِّهِ
وَلَكِنْ هَجِينٌ لَيْسَ يُورَى لَهُ زَنْدُ
وَأَنْتَ زَنِيمٌ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ
كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ ٱلْقَدَحُ ٱلْفَرْدُ
وَإِنَّ ٱمْرَأً كَانَتْ سُمَيَّةُ أُمَّهُ
وَسَمْرَاءُ مَغْلُوبٌ إِذَا بُلِغَ ٱلْجَهْدُ

فبعد هذه النماذج لهجاء حسان ، نحب ان نقف هاهنا وقفة قصيرة

---

(١) الهجين : من كان ابوه عربياً وأمه غير عربية ، أما هنا فيرى حسان أن ابا سفيان ابن أمة .

كما وقفنا عند ابياته المدحية علنا نستخلص من هذا الهجاء شيئاً ، لاسيما وقد اكدنا ان حسان في هجائه كان جديداً ايضاً ، فأنت ترى في هذا الشعر ان حسان لم يتعرض الى ما تعرض اليه الشعراء من هجاء مقذع يخرج عن حدود الادب والذوق ، او من وصف المرء وصفاً غير حقيقي فيه ، لا لشيء وانما لغاية في النفس ، ونحن هنا لا ننكر ان حسان في هجائه جميعاً لم يكن هذا الشاعر المقذع ، ولكننا نؤكد ان حسان لم يكن مقذعاً في هجاء القرشيين انسباء الرسول الاعظم واقربائه ، وإن كان حنكا حكيما مرناً لبقا في هذا الهجاء ، وكان عليه ان يكون كذلك لانه اذا تعرض لهؤلاء في شيء فانما يتعرض للنبي ، واما مرونة حسان وحنكته وعدم تعرضه للقرشيين في شيء ، فيردها النقاد والمؤرخون الى روايات لا نأخذ بها والتي تشير الى ان حسان عندما رغب في هجاء جماعة من قريش قال له الرسول : « وكيف تصنع بي » فقال : « اسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين » . عندها بعثه الى ابي بكر ليدله على الاشخاص ، وليدله على معايبهم ذلك لأن ابا بكر علاّمة العرب في الانساب ، ويزيد النقاد على ذلك ان الرسول قال له : « اذهب وروح القدس معك . » وفي رواية اخرى : « اذهب وجبريل معك . » قلت اننا لا نأخذ بهذه الرّوايات والدافع الذي يدفع بنا الى ذلك ترفع النبي عن هذه الصغائر ، فالنبي الذي قال : « انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » والذي قال فيه تعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » . والنبي الذي كان بامكانه ان يقضي على الكفرة جميعاً يوم فتح مكة يوم قال لهم : « ماذا ترون انى فاعل بكم . »

قالوا : « اخ كريم وابن اخ كريم . » قـــال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء . » يأبى ان يشرك جبريل مع حسان في هجاء هؤلاء ، وحسان لم يذهب ليقاتلهم بالسيف ، فالروايات هذه اذن قد دست على النبي ، وعلى كلّ ، ومهما ذهب الرّواة والنقاد في دراستهم فنحن نجزم ، ونجزم يقينا ان هذه الرّوايات مختلقة ، وان النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لم يكن له رأي في هذا الهجاء ، ولا أرى مانعاً يمنع حسان في هجاء القرشيين دون ان يسأل النبي رأيه ما دام حسان كان حنكا مرنا حكيما في هجائه ، وما دام لم يتعرض للقرشيين في شيء يمس بكرامتهم ومكانتهم ، واما انه كان يستشير ابا بكر فهذه رواية اخرى تحتاج الى درس ايضاً ، ورأينا فيها مخالف لرأي النقاد ايضاً ، فنحن لا ننكر على ابي بكر ان يكون علاّمة العرب في الانساب ولكن ننكر على حسان ان يستشير ابا بكر في انساب قريش والذي يؤكد لنا ذلك ، هو البرهان الذي لا يحتاج الى كثير عناء ، فالعرب اليوم ، وغير العرب خاصة الذين يعنون بدراسة الادب العربي ، والتاريخ الاسلامي يعرفون دوحة (آل هاشم) وتفرعاتها ، وبطونها جميعا فكيف بحسان وهو ابن الجزيرة وشاعرها قبل الاسلام وشاعر النبي ، وملازمه كيف آمن به ، وكيف تبعه ، وكيف احبه ، ومحمد علم الجزيرة يومئذ ، اليه تتجه الانظار وبه تعلق القلوب ، وهو لا يدري من نسبه شيئاً ، ولعل قائل يقول وهو ما اتوقعه واود ان ابينه ان محمداً نشأ في مكة ، وحسان نشأ في المدينة ولم يكن في ذلك العصر من اسباب الاتصال بين البلدان ما هو معروف اليوم ، وانه لرأي من حقهم

ان يأخذوا به وان يلقوه علينا ، وان من حقهم ايضا ان نبين لهم ذلك في وضوح ، فنؤكد لهم ان الاتصال لم يكن منعدماً كما يظنون ، والواقع ان الاتصال كان موجوداً بين يثرب من جهة ، وبين مكة من جهة اخرى بسبب تجارة قريش الواسعة والتي كانت تذهب صعداً نحو الشمال الى الشام فتمر بالمدينة ، ثم دليل آخر وهو اشد صلة بالموضوع ، ان والدة النبي صلى الله عليه وسلم هي من يثرب من بني النجار ، وهم قوم من اشراف المدينة ، ثم ان النبي كان يزور مع والدته اخواله في يثرب ، ثم هناك من يقول لم يكن لمحمد يومئذ ، يوم كانت هذه القوافل تصعد شمالاً الى الشام فتمر بالمدينة ، ويوم كان يزور مع امه يثرب ، لم يكن له من الشأن ما يدفع الناس الى دراسة تاريخه ، ودراسة دوحة آل هاشم ، فأقول لآل هاشم قبل الاسلام مكانتهم في الجاهلية فهم سدنة الكعبة وكانت لهم مفاتيحها فهم اشرف اشراف العرب فمن حقهم على البيئة العربية ان تدرس دوحتهم ، ثم هذا النضال الذي قام بين محمد وخصومه ، يوم جهر بدعوته ، ودعا الى ربه فخاصمه اهله واقرباؤه والادنون اليه ، ثم هذا الاضطهاد الذي لحقه منهم ، وهذا الصبر الذي ابداه ، والذي لم يزحزحه عن رأيه شيئا ، ثم بيعتا العقبة ، كل هذا ألم يدفع العرب جميعا الى دراسة شخصية محمد والى الوقوف على دوحة آل هاشم ، والى مكانة النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الدوحة ، بعد ذلك نعتقد بان حسان لم يكن محتاجا الى ابي بكر ليدله على معايب القوم ، وعلى انسابهم ، يثبت لنا صحة ما ذهبنا اليه ان الرواية كلها قد دست على الاسلام ، وقد

دست على الرسول ، وهنا نود ان نتساءل ايضـــاً من هو الذي حاول ان يتعرض الى النبي في اخلاقه ويدس عليه هذه الرواية ، فأرى ان الخصومة التي كانت محتدمة بين انصـار الدين الجديد ، وأنصار قريش ممثلي الدين القديم من جهـــة بادىء الامر ، وبين الأنصار في يثرب واليهود فيما بعد من جهـــة اخرى ، حتى ان شعراء قريش لم يرعووا عن هجو النبي هجـاءً مقذعاً حاولوا به ان ينالوا من مكانته ، وهذا الهجاء وإن كان قد اندثر بعد اسلام قريش فالروايات تؤكد ان احد شعرائهم وهو عبد الله بن الزِبَعري لما جاء المدينة لملاحاة حسان في صحبة ضرار بن الخطاب بعد اسلامه قال له « يا ابا الوليد ان شعرك يحتمل في الاسلام ولا يحتمـــل شعرنا » فإذا كان هذا الشاعر ينكر من امر شعره الذي هجا بـه النبي ، والذي يبدو مقذعاً لأن الشاعر رآه لا يحتمل ، الا يجوز ان يكون هو وأصحابه جميعاً قد وضعوا هـذه الرّوايات كلها .

هذا ما اؤكده وهو ما ابريء الرسول الكريم منه .

- ٧ -

ثم هاك حسان هنا في صورة جديدة لم نألفها عند غـــيره من اعلام الشعر العربي ولعلها كانت بدافع العقيدة . انها صورة المؤرخ التي حدد فيها مواقع المسلمين واعمالهم ، وقتلاهم وقتلى عدوهم حتى غدت هذه الصورة في شعر حسان وثائق يرجع اليها المؤرخون والنقـاد في تحديد الحركة الجديدة ، التي قام بها المسلمون لينشروا الدعوة ، بعـد ان فشلت اساليب الرحمـة ، وان حسان اول ما يؤرخ من هذه المواقع موقعة بدر الكبرى ، يوم خرج المسلمون لملاقاة ابي سفيان في تجارة قريش فتمكن هذا من الافلات ولكن جموعهم في مكة ابت إلا ان تجابه المسلمين ظناً منهم ان باستطاعتهم القضاء عليهم بما يملكون من قوة ، وبما لديهم من عتاد ، وخرج المسلمون وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لثمان خلون من رمضان للسنة الثانية للهجرة ، وقد جعل النبي عمرو بن أم كلثوم عـــلى الصلاة في الناس كما جعل ابا لبابة على المدينة ، وكان يتقدم جيش المسلمين رايتان سوداوان ، وكانت ابلهم في هذه الحمـــلة الاولى سبعين بعيراً وكانوا يعتقبونها ، وكانت عدتهم خمسة وثلاثمائة رجل منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس ،

والباقون من الخزرج ، هذه المعركة التي التحم فيها الجمعان صباح يوم الجمعة لسبعة عشر خلون من رمضان ، والتي كان فيها النصر حليف المسلمين ، والتي وقف بعدها حسان يتساءل ويسأل اهل مكة لماذا لم يحضروا جميعاً هذه المعركة ليروا بأم العين كيف اهلك المؤمنون الكفرة ، وأهلكوهم في أشد الساعات ضيقا وأشدها حماسة فلقد قتلوا اغنياء القوم ، ووجهاءهم ، واشرافهم ولم يرجع هؤلاء إلا بالمصيبة الكبرى التي هدت كيانهم كوحدة .

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَتى أَهْلَ مَكَّةٍ
إِبَارَتُنَا الْكُفَّارَ فِي سَاعَةِ الْعُسْرِ
قَتْلَنا سَرَاةَ الْقَوْمِ عِنْدَ رِحَالِهِمْ
فَلَمْ يَرْجِعُوا إِلاَّ بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ .

ثم يأخذ بعد ذلك في تعداد قتلة المشركين ، مشيراً الى صفاتهم ومكانتهم في البيئة العربية يومئذ ، وموقفهم من الدعوة الاسلامية ، وكيف تركوهم بعدئذ تنبح حولهم الذئاب الجائعة ، وكيف انهم مع كل ما عانوه من عذاب الدنيا سيصلون في الآخرة ناراً حامية ، وسيدخلون جهنم غير مأسوف عليهم ، وانه بعد ذلك ليفخر بهذا النصر العظيم الذي مَنَّ الله به عليهم ، وكيف انهم مع قلة عددهم وعدتهم ومع ، ان المشركين يفوقونهم في العدد والعدة ، لم يتراجعوا يوم بدر ولم يتخاذلوا وثبتوا وانزل الله تعالى قوله : « إذ يُوحي ربُّكَ إلى الملائكة اني معكُمْ فثبّتوا الذين

آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرّعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كلّ بنان . » (١)

وان حسان لمطمئن الى هذا النصر فخور به، مذيعه بين الناس محدده في التاريخ .

قَتَلْنَا أَبَا جَهْلٍ وَعُتْبَةَ قَبْلَهُ
وشَيْبَةَ يَكْبُو لِلْيَدَيْنِ وَلِلنَّحْرِ
وَكَمْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ مُرَزَّأٍ
لَهُ حَسَبٌ فِي قَوْمِهِ نَابِهِ الذِّكْرِ
تَرَكْنَاهُمُ لِلْعَاوِيَاتِ تَنُوبُهُمْ
وَيَصْلَوْنَ نَاراً بَعْدُ حَامِيَةَ الْقَعْرِ
لَعَمْرُكَ مَا خَامَتْ فَوارِسُ مَالِكٍ
وَأَشْيَاعُهُمْ يَوْمَ الْتَقَيْنَا عَلَى بَدْرِ

فإذا كان حسان معجب بهذا النصر محدده في التاريخ حتى غدا وثيقة يرجع اليها في تحديد انتصارات المسلمين ، فهو ايضا يذكر في ديوانه قصيدة اخرى ، تحدد قتلى المسلمين يوم احد ، كما يحدد هذا اليوم في التاريخ وانك لتجد في هذه الابيات التي تركها حسان صورة ذلك اليوم الأغر في حياة الرسالة الاسلامية ، ويوم احد ،

(١) سورة الأنفال آية رقم ١٢ .

يوم تلك المعركة التي دارت رحاها عند سفوح (جبل احد) على بعد خمسة اميال من المدينة ،والتي جمعت لها قريش عدتها جميعاً ، وجمعت لها زينتها واجنادها وخرجت تقابل المسلمين الذين لم يتجاوزوا الألف ، بثلاثة آلاف من رجالها بينهم سبعمائة دارع ، وحسان هنا يخاطب قريش باسلوبهم ويخبرهم بقوله اذا كنتم تعتبرون هذا اليوم نصراً لكم فهو نصر مؤقت ، وسيبدو الحق عما قريب ، وسترون بام اعينكم لمن النصر النهائي لأن الحرب سجال ، وانه ليراه يوم عظيم ، حاربت فيه بنو الأوس كلهم ولم يتخلف منهم احد وقد ابلوا بلاءً حسناً وكان لهم فيه ذكر مجيد ، وحارب فيه الى جنب بني الأوس بنو النجار اخوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا كلهم اشداء اقوياء لا يهابون الموت في سبيل الله ولا يخشون في لقاء عدوهم احداً .

وَقُلْ إِنْ يَكُنْ يَوْمٌ بِأُحْدٍ يَعُدُّهُ
سَفِيهٌ فَإِنَّ الحَقَّ سَوْفَ يَشِيعُ
وَقَدْ ضَارَبَتْ فِيهِ بَنُوا الْأَوْسِ كُلُّهُمْ
وَكَانَ لَهُمْ ذِكْرٌ هُنَاكَ رَفِيعُ
وحَامَى بَنُوا النَّجَّارِ فِيهِ وَضَارَبُوا
وَمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي اللِّقَاءِ جَزُوعُ

ثم تراه بعد ذلك يشير الى ان هذه الجموع كلها قد حاربت الى جنب رسول الله، لا يخذلونه ولا يتراجعون عنه يؤيدهم نصر من الله وتحف بهم رحمته تعالى، وكانوا جميعا في لقاءعدوهم قد دافعوا واوفوا بعهدهم ، يوم عاهد رجالهم النبي في بيعة العقبة وانه لفخور في هذا اليوم ، معجب به راضٍ عنه ، مطمئن الى النهاية التي سيرتفع بها علم النصر ، وكيف لا يكون كذلك وقد رأى قريش قد كفرت بربها ، وقاتلت نبيه وهل يستوي في الحياةوفي الممات عبد عصا (وهم قريش وآلهم) وعبد مطيع ، وهم المهاجرون والأنصار،ثم تراه يصورهم في هذه الحرب وكيف كانوا يمتشقون سيوفا بيضاء كل منها كان اذا اشتد الهول وعظم الخطب يبتر فارسا ويلقي به غير مأسوف عليه .

أَمَامَ رَسُولِ ٱللهِ لاَ يَخْذُلُونَهُ

لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَشَفِيعُ

وَفَوْا إِذَا كَفَرْتُمْ يَاسَخِينَ بِرَبِّكُمْ

وَلاَ يَسْتَوِي عَبْدٌ عَصَا وَمُطِيعُ (١)

بِأَيْمَانِهِمْ بِيضٌ إِذَا حَمِيَ ٱلْوَغَى

فَلاَ بُدَّ أَنْ يَرْدَى بِهِنَّ صَرِيعُ

---

(١)قوله اذ كفرتم يا سخين ، هو يا سخينة ، والسخينةطعام يتخذ من دقيق وتمر او ماء ، يطبخ ثم يؤكل وهو اغلظ من الحساء وارق من العصيدة وكانت قريش تكثر من اكلها فعيرت بها حتى سموا سخينة .

وانه ليذكر بعد ذلك قتلى قريش فيشير الى ان هذه السيوف ستترك فرسانا مضرجين بدمائهم كما تركت عثمان طلحة بن ابي طلحة مقتولاً ، وسعد شقيق عثمان بن عفان ، وهي منتصبة لم ينلها من هذا القتال الشديد اذى ، تراها ابداً مستعدة للفتك وللقتال وانها قتلت « أبياً » (١) وقد ابتل قميصه لكثرة ما نضح دمه ونزف. قتله رسول الله بضربة محكمة ثاقبة فأرداه قتيلاً وعندها علا الصياح ، واشتد الهول واصطخب القوم وتعالى الغبار اثر الطراد الذي اشتد وقعه .

كما غادَرَتْ في النَّقْعِ عُثْمانَ ثاوِياً
وَسَعْداً صَريعاً والْوَشِيجُ شُروعُ
وَقَدْ غادَرَتْ تَحْتَ الْعَجاجَةِ مُسْنَداً
أُبَيّاً وَقَدْ بَلَّ الْقَمِيصَ نَجِيعُ
بِكَفِّ رَسُولِ اللهِ حَتَّى تَلَفَّفَتْ
عَلَى الْقَوْمِ مِمَّا قَدْ يُثِرْنَ نُقُوعُ

فاذا خلص حسان من ذلك وأشار في ابياته الى هذه المعارك الطاحنة التي دارت عند سفوح جبل احد ، وافتخر بقومه ، وهم الاشراف في فروعهم وقد جمعهم الاسلام كوحدة ، وهم في اقوامهم سادة ، فلا شك ان الله سيعزهم بالاسلام رغم أنّ الكفرة يرون هذا الأمر بعيد التحقيق ، مشكوك فيه ، ويروح يذكر

(١) ابيا : هو ابي بن خلف الجمحي ، وقد قتله النبي .

قتلى المسلمين وفي مقدمتهم حمزة سيد الشهـــداء عم النبي، كيف ثوى وهو راض بلقاء ربه مطمئن الى هذه الميتة في سبيله .

أُولَئِكَ قَوْمي سَادَةٌ مِنْ فُرُوعِهِمْ
وَمِنْ كُلِّ قَوْمٍ سَادَةٌ وفُرُوعُ
بِهِنَّ يُعِزُّ ٱللهُ حِينَ يُعِزُّنَـا
وَإِنْ كَانَ أَمْرٌ يَاسَخِينَ فَظِيـعُ
فَإِنْ تَذْكُرُوا قَتْلَى وَحَمْزَةُ فِيهِمُ
قَتِيلٌ ثَوى لِلّٰهِ وَهُو مُطِيعُ

وشاعرنا اذ يذكر كل ذلك يروح فيصف الفرق بين قتـــلى المسلمين ، وقتلى قريش ، فيشير الى ان هؤلاء لهم الجنة ولهم فيها ما يشتهون وعداً من الله ومن اصدق من الله قيـلاً ، وهؤلاء في النار يصلونها ابداً طعامهم شـوك لا يسمن ولا يغني عن جـوع وشرابهم فيها حميم يحرق اجوافهم .

فَإِنَّ جِنَانَ ٱلْخُلْدِ مَنْزِلُهُ بِهَـا
وَأَمْرُ ٱلَّذِي يَقْضِي ٱلأُمُورَ سَرِيعُ
وَقَتْلاَكُمُ فِي ٱلنَّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ
حَمِيمٌ مَعاً فِي جَوْفِهَا وَضَرِيعُ

هذا حسان يوم احد ، قدمته صادقاً امينا في تقديمه كما هو الواقع والحقيقة ولم اك في هذا الصدق وهذه الامانة قد جئت بشيء جديد في عالم النقد ، فالناقد يجب ان يكون امينا قبل كل شيء ، بعيداً عن اهوائه والمؤثرات جميعا لأن نقده قبل كل شيء سيدخل في التاريخ ولأن ما يقدمه سيكون بين أيدي ادباء ونقاد يعملون فيه الفكر ويبينون فيه وجه الحق ، ثم ان نقده سيكون مادة للناشئة فعليه ان يتوخى الامانة فيما يعرضه ، ونحن لم نقدم حسان في يوم احد صورة عامة شاملة قبل ان نحدد لمن كانت الغلبة في هذا اليوم ، كما حددنا ذلك يوم بدر ، ولا شك في ان حسان ابن ثابت جعل من يوم احد يوم فخر للدعوة رغم ما مني به المسلمون من خسائر فادحة ، ولك ان تتساءل ، فأقول انه يراه فخراً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وان هذا اليوم يثبت صدق النبي ، وصدق دعوته ، وبلاء اصحابه واخلاصهم وشجاعتهم ، وانه اليوم الاول والاخير الذي تمكن فيه المسلمون من فهم محمد ، وفهم رسالته فالنبي أعد لهذا اليوم عدته وخططه ، وقسم جيشه تنظيما بديعا يثبت له عبقريته العسكرية كقائد ، إذ جعل خمسين من الرماة على شعب في الجبل وقال لهم « احموا لنا ظهورنا فانا نخاف ان يجيئونا من ورائنا والزموا مكانكم وان رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وإنما عليكم ان ترشقوا خيلهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل . » فلما خلص النبي من هؤلاء خرج الى قريش والتقى بهم وهزمهم هزيمة منكرة يحفظ التاريخ وقائعها ، ولكن الرماة هؤلاء لما رأوا طلائع النصر ، وانهزام المشركين ،

برحوا مكانهم في الشعب واتجهوا نحو الغنائم يجمعونها فلما رأى المشركون ان الرماة قد انصرفوا احتالوا على المسلمين وجاءوهم من ورائهم وكان هؤلاء قد تفرقت كلمتهم بتفرق صفوفهم . ولم يروا ما حل بهم إلا بعد ان بطش القرشيون بطشتهم الجبارة التي اكسبتهم المعركة ، معركة احد ولكن يجب هنا ان لا ننسى ان اشاعة قد روجت اثناء المعركة وهي ان محمداً قد مات ولذا خارت قوى المسلمين فأصيبوا بانهزام معنوي وان ثابروا على القتال ذلك لانهم في اعتقادهم لا يقاتلون في سبيل محمد وانما يقاتلون في سبيل الله ، ولكن كانوا يعتبرون محمداً ، وهو رسول الله امامهم في هذا القتال فمن حقهم ان يجزعوا ولكن مع كل هذا ثبتت طائفة امام النبي ودافعت عنه دفاعا مستميتا واقترب المشركون منه ودونه اثنان ، سعد بن ابي وقاص ، ومصعب بن عمير يذودان عنه ، وام عمارة المرأة المسلمة ، وابو دجانة البطل الاسلامي الذي حارب في هذه المعركة بسيف رسول الله والذي امتلأ جسمه بالجراح والذي اقترب من النبي وقال له « دعني يا رسول الله اترس دونك بنفسي لقد ولى الناس عنك وهذا نبل عدوك يصل اليك . » فيقول له محمد « ان النبل يقع في ظهرك . » ولكن ابا دجانة يأبى على النبي ويترس دونه ولا يحس بألم كلما اصيب بنبل وكأنه استعذب الالم في الدفاع عن الرسول ويظل ابو دجانة كذلك يحمي الرسول ويترس دونه حتى لا يبقى في ظهره موضع واحد دون اصابة قاتلة ، وبأذن ربك ان تمر هذه المحنة وقد ابقت للمسلمين نبيهم وانجلت عن تراجع المشركين بعد هذا الانتصار الموضعي

الذي لم يستطيعوا به القضاء على المسلمين كأمة وعلى محمد كرسول.

أفليس بعد هذا نرى من حق حسان ، وهو شاعر النبي ان يفتخر بمعركة احد وان يخرجها مخرج الفخر ، وهو في دفاعه عن النبي وعن الدعوة الجديدة أشبه ما يكون بصاحب صحيفة تنتمي الى حزب من الأحزاب ، أو ليس له ايضاً ان يفتخر بعبقرية محمد العسكرية ، ذلك لو ان الرماة استجابوا دعوة النبي ولم يبرحوا مكانهم في الشعب ويغتروا بالحياة الدنيا لكان لهم النصر ، ولكن هي مشيئة ربك ، لتزيد المسلمين إيمانا بمحمد كرسول ، وتزيدهم اعتقاداً بصدق دعوته وانه من عند الله وليتمسك المسلمون بعد هذا اليوم بقول النبي فيعملون بايحائه لأنه « ما كان ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى . »

هذا هو يوم أحد خالد في التاريخ لو قدر لحسان ان يبتعد عن الخطة التي رسمها لشعره في الاسلام لامكنه ان يجعل منه يوماً أغراً في تاريخ الانتصارات الاسلامية ولجعله مادة قوية لشعر الملاحم التي لم يعرفها الادب العربي ، ففيه تمجيد للبطولة وتمجيد للعقيدة ولكان حسان قد اختص بهذه الصفة الى جانب كونه « مؤسس الشعر التاريخي الاسلامي(١) » كما يراه الاستاذ فؤاد افرام البستاني .

---

١ - الروائع - حسان بن ثابت رقم ٣٣ صفحة ١٤٩

- ٨ -

وحسان بعد ان أرخ يوم بدر الكبرى ، ويوم احد وأشار فيها جميعاً الى قوى المسلمين وقوى اعدائهم والى القتلى بين الطرفين كما اشار في قصائد اخرى الى معارك ومواقع يطول بنا المقام لو ذهبنا في نقدها وتحديدها في هذه الدراسة ، راح يتوقع النصر الأكبر، والفتح الاعظم الذي منّ الله به على النبي ، كما راح يصور هذا اليوم تصويراً ألهمه وفتح به عليه وتراه في هذا التصوير يخاطب أبا سفيان ويؤكد له ان اللقاء قريب ، واننا لن نكون أمة ، ولن تكون لنا خيلاً إذا لم ترونا في القريب العاجل نثير الغبار بحوافر خيولنا عند اعالي مكة وحول المقابر التي تعرف بـ(كمداء) ولا بد ان تروا بأعينكم ان خيلنا حباً منها في قتالكم ستمضي صعداً على الموضع الشامخ وستكون سلسة القياد ، وسترون كذلك فرساننا الابطال المغاوير قد حملوا على اكتافهم الرماح المتعطشة الى الدماء وستتسابق خيولنا مسرعة مندفعة في هذا الهجوم الذي سيكتب فيه للمسلمين عهد جديد ، وهاك حسان وهو ينشد هذا البيت تتراءى له الكعبة وتتراءى له خيول المسلمين تغزوها دونما عنف ، وتدخلها دونما قتال، وتتراءى له نساء قريش

وقد اخذن يلطمن وجوهها باغطية رؤوسهن السوداء ، ويقف حسان ويخشع قلبه وتهتز جوانحه وتدمع عيناه شكراً لله على هذا الفتح العظيم المبارك ويقرأ في سره قول الله تعالى : « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . »

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
يُبَارِينَ الْأَعِنَّةَ مُصْعِدَاتٍ
عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ
تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

ويرجع حسان بصره عن هذا المشهد الذي تراءى له – والذي اكده المؤرخون والرواة يوم فتح مكة ، وكيف ان النساء اخذت تلطم بمناديلهن وجوه الخيل لتدفعها عن الكعبة – ويرجع حسان بصره اثر ما فتح عليه ، ويؤكد لأبي سفيان من جديد مشيئة المسلمين في هذا الفتح وهو اذا خضع المشركون لارادة الله في اليوم المقبل وتركوا المسلمين يدخلون البيت الحرام دونما عنف وخضعوا لهم في هذا اليوم انتهى الامر الذي يقصدون ، ولكنهم اذا استمروا في طغيانهم وظلوا متمسكين باصنامهم لا يرجعون عن دينهم ، وما في دينهم من كفر ، فانه يسأله ،

ويسأله في لطف ان يصبروا جميعاً لقتال ذلك اليوم الرهيب الذي يعز الله فيه من يشاء ، وهنا يبدو حسان في اجلى صورة من صور الحق والايمان فلا يتكبر على خصم النبي ، ولا يؤكد له بان النصر سيكون حتما للمسلمين ، فحسان لا يتبع في شعره شيئاً من هذا ولكن يدع الأمر كله لله ، وتراه مع كل ذلك يؤكد له ، ان الله تعالى سيؤيدهم بالملائكة وبروح من عنده ، هذه الروح السامية التي لا تقاس بشيء .

فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا أَعْتَمَرْنَا

وَكَانَ ٱلْفَتْحُ وَٱنْكَشَفَ ٱلْغِطَاءُ

وَإِلَّا فَٱصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمٍ

يُعِزُّ ٱللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ

وَجِبْرِيلٌ رَسُولُ ٱللَّهِ فِينَا

وَرُوحُ ٱلْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ

فاذا انتهى حسان من وصف هذا اليوم وتحديده ، وما سيتوقعه من نصر ، توجه الى ابي سفيان من جديد ، وراح يعلمه الايمان والاسلام ، ويقرأ عليه ما امر الله به المسلمين ان يقرأوا على الكفرة حتى يؤمنوا ، وانه قال تعالى : لقد ارسلت رسولاً للناس كافة ، يقول الحق ويدعو كم الى طاعة الله لعلكم تهتدون فيصلح حالكم ، وينفع بعدها الاختبار « ونبلوكم بالشر والخير فتنة . »

ولقد آمنت به وشهدت انه رسول الله ، فعاندتم واصررتم على كفركم وأبيت الايمان به وبرسالته .

وَقَالَ ٱللهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْداً

يَقُولُ ٱلْحَقَّ إِنْ نَفَعَ ٱلْبَلاَءُ

شَهِدْتُ به فَقُومُوا صَدِّقُوهُ

فَقُلْتُمْ لا نَقُومُ ولا نَشَاءُ .

ويتعرض حسان بعد ذلك الى ابي سفيان مباشرة ، ويسأل القوم ان يبلغوه عنه رسالته وهي ان الامر قد اوشك ان ينتهي وان يتضح لكل ذي بصر ويسألهم في هذه الرسالة التي يود ان يبلغها ابا سفيان ان يذكروه بيوم احد ، وكم قتل فيه من ابطالهم الصناديد حتى انه حمل رايتهم عبداً من عبيدهم ، وهنا يقول له انتم معشر قريش ، آل عبد الدار الذين لكم حق السقاية والحجابة في بيت الله الحرام ، انتم السادة وقائدكم في احد ، وحامل لوائكم عبد من اماثكم وانه ليساءله بعدما لحقهم في احد من ذل ، ان لا يتعرض الى سيد الانام فيهجوه ، ويجيب عنه حسان لا يريد من هذا الجواب جزاءً ، ذلك لانه يؤمن بالله (١) وانه لا يرى هجاءه للنبي شيئاً عظيماً ، يهجوه ويتعرض له ، وليس نظيره ، كيف يهجوه وهو مبارك صالح محب للخير دوما مع الحق ، امين

(١) يقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « ثوابك على الله الجنة يا حسان . »

الله ورسوله صفاته الوفاء ، وشيمته الرحمة ، ولكن حسان لا يبأس ولا يحزن مادام هؤلاء لا وزن لهم ، فسيان منهم من يمدح الرسول ومن يهجوه ، فلا يضره هجاؤهم ، ولا ينفعه مدحهم ، ولا يجديه شيء ، ذلك لانهم اذلاء ، ولانه صلى الله عليه وسلم في منعة من خيرهم وشرهم .

أَلاَ أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي
فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْداً
وَعَبْدَ ٱلدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّداً فَأَجَبْتُ عَنْهُ
وَعِنْدَ ٱللهِ فِي ذَاكَ ٱلْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ
فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا ٱلْفِدَاءُ
هَجَوْتَ مُبَارَكاً بَرّاً حَنِيفاً
أَمِينَ ٱللهِ شِيمَتُهُ ٱلْوَفَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ ٱللهِ مِنْكُمْ
وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ .

فهذه مقاطع من شعر حسان ، صورة للايمان القوي الذي يخالج قلبه ، ومثال للرغبة الصادقة التي يسعى اليها من وراء دفاعه عن الرسول ، وصورة للشاعر الموجه بدافع من عقيدته وايمانه ، اذا كان هناك ثمة ادب موَجه ، او موَجِه . حتى ان النبي بشره بالجنة .

فهو اذن في هذا الشعر الجميل السلس لا يبغي سوى رضى الله ، ورضى النبي هذه الغاية التي لم يعرفها الجاهليون في شعرهم ، ولم يسعوا اليها في حياتهم ، وترى حسان في هذا الشعر مطمئنا لدفاعه عن النبي راضيا به محبا له ، ولعل هذا الاطمئنان وهذه الغاية وهذا المصير لم نعرفه قبل الاسلام ، ولم نجده في الشعر الجاهلي ايضاً على الاطلاق ، ثم في هذا الشعر الفاظ ومعان جديدة مبتكرة ادخلها القرآن على اللغة وتأثر بها حسان في جملة ما اثر فيه الدين الجديد فزين بها شعره فكان جديدا في الفاظه وغايته ومعانيه ، الى جانب انه جديد في الموضوعات التي تغنى بها وفي اساليب المدح والهجاء .

- ٩ -

وقد يطول بنا البحث لو اخذنا في عرض قصائد حسان كلها، ولكن مادمنا قد عرضنا نماذج لمدحه وهجائه وشعره التاريخي، وسعياً وراء الغاية المرجوة من دراسة شعره عامة نروح فنعرض انموذجاً من رثائه، الذي يتضمن صفة الرثاء الى جانب الشعر التاريخي ولعل افضل انموذج لشعره هـذا، رثاؤه للنبي فهو صورة صادقة لاحساس القوم يومذاك، ورسم واضح لشعورهم وتصوير دقيق لوضعهم اثر تلك المصيبة الكبرى التي رزئوا بها بانتقال النبي، وترى حسان في هـذا الشعر يذكر المدينة المنورة باسمها الجديد الذي سماها به النبي ويؤكد ان في «طيبة» هذه معهد الرسول، وبيته المنير، وقدتتبدد هذه الآثار وتنمحي ولكن ستبقى هناك علامات في هذه الدار التي فيها منبره الذي كان يعتليه، وستبقى هذه الآثار وسيبقى هذا الربع والمصلى وتلك الحجرات التي كان يهبط فيها الوحي على النبي الاعظم، هذا النور الالهي الذي اخرج الناس من الظلمات الى النور. ستبقى مزاراً لامته من بعده.

وحسان اذ يذكر المدينة المنورة في مطلع قصيدته هـذه

يؤرخ ان النبي قد انتقل الى الملأ الاعلى في المدينة ، وتراه في وصفه لها وفي تسميتها باسمها الجديد « الطيبة » ليحدد ايضاً ما فيها من آثار للاسلام وللمسلمين وللنبي الكريم ، وان ابياته هذه كلها مقدمة لرثائه :

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ
مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمُدُ
وَلا تَنْمحي الآيَاتُ مِنْ دارِ حُرْمَةٍ
بِها مِنْبَرُ الْهَادِي الَّذي كَانَ يَصْعَدُ
وَوَاضِحُ آياتٍ وَبَاقِي مَعَالِمٍ
وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصلًّى وَمَسْجِدُ
بِها حُجُراتٌ كان يَنْزِلُ وسْطَهَا
مِنَ اللهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ

بلى في هذه المدينة ، وعند هذه الآثار ، وما تبقى منها بعد انتقال النبي ، وقف حسان شاعرنا يبكي الرسول وظل يبكيه ، وقد اسعفته الدموع ، وان عينين كعيني حسان تؤتى الدمع في هذا الموقف الرهيب الذي ما كان بوده ان يقفه ، والذي كان يرجو صادقاً ان يكون له شرف الموت في حياته ، وان في موقفه هذا اخذ يحاول احصاء مآثر الرسول الاكرم ، فلم يقوَ

على احصائها لكثرتها وتشعبها ، وكنت تراه يجهد نفسه على غير طائل حتى اعترته الحيرة ، وابتلد فكره ، وضاع عنه ما كان يرجو لأنه كان يحس شيئاً يرمض حشاه ويذيب لفائف قلبه ، ويصرفه عن كل ذلك ليظل يذكر نبيه ويبكيه بكاء حزيناً ، وكيف لا يكون في حيرة وقد نزلت به هذه المصيبة المفجعة ، وشفه هذا الحزن المؤلم ، ولكن مع ذلك ، مع تبلد فكره وحيرته ، وحزنه وبكائه ظل يعد مزاياه ويذكرها ، واطال حسان الوقوف وعيناه تذرف ، وتذرف كل ما بوسعها ان تذرفه من الدمع على القبر الطاهر الذي ثوى فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ظَلِلْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فَأَسْعَدَتْ
عُيُونٌ وَمِثْلاَهَا مِنَ ٱلْجَفْنِ تُسْعِدُ
تَذَكَّرُ آلاَءَ ٱلرَّسُولِ وَمَا أَرَى
لَهَا مُحْصِياً نَفْسِي فَنفسِي تَبَلَّدُ
مُفَجَّعَةٌ قَدْ شَفَّهَا فَقْدُ أَحْمَدٍ
فَظَلَّتْ لِآلاَءِ الرَّسُولِ تُعَدِّدُ
أَطَالَتْ وُقُوفاً تَذْرِفُ ٱلْعَيْنُ جُهْدَهَا
عَلَى طَلَلِ ٱلْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ .

وانه لقبر مقدس بارك الله ، كما بارك هذه البلاد المقدسة التي

ثوى فيها المعلم الأكبر ، والرشيد الأكمل الذي كان يصيب في قوله ، ويصيب في عمله ، يأخذ في وصف القبر فيحدده لك ، فاذا هو قبر مبارك ضم بين ارجائه علم الانبياء ، وخير الانام ، كما رصّف بناؤه ، ونضدت احجاره الرقيقة العريضة وان الايدي اذا اخذت تهيل عليه التراب ، والأعين تهيل عليه الدمع ، كأن كل ذلك كان اعلاناً ان فرقداً عظيما قد خبا ، وان هؤلاء الذين كانوا يهيلون عليه التراب ويذرفون عليه الدموع قد دفنوا اخلاقاً رفيعةً ، وعلماً واسعاً ورحمة مثلى ، واذا هو اليوم صلى الله عليه وسلم غيره بالامس لا يضجع على وسادة ولا يتكيء على شيء .

فَبُورِكتَ يَا قَبْرَ ٱلرَّسُولِ وَبُورِكتْ
بِلَادٌ ثَوَى فِيهَا ٱلرَّشِيدُ ٱلْمُسَدَّدُ
وَبُورِكَ لَحْدٌ مِنْكَ ضُمِّنَ طَيِّباً
عَلَيْهِ بِنَاءٌ مِنْ صَفِيحٍ مُنَضَّدُ
تَهِيلُ عَلَيْهِ ٱلتُّرْبَ أَيْدٍ وَأَعْيُنٌ
عَلَيْهِ وَقَدْ غارَتْ بِذلِكَ أَسْعُدُ
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْماً وَعِلْماً وَرَحْمَةً
عَشِيَّةَ عَلْوَهُ ٱلثَّرَى لا يُوَسَّدُ .

ثم ها هو بعد ذلك يصف جموع المسلمين و كيف عادت بحزن

شديد يفطر قلوبها ، وافئدتها ، ولقد رجعت هذه الجموع المحتشدة ولم يرجع معها نبيها وقد خارت قواها ، وانحنت ظهورهـا ، وضعفت اجسامها ، رجعوا وهم يبكون النبي وقدتشاركهم السماء بكاءهم وحزنهم ولتبكي معهم هذا اليوم الذي قضى فيه محمد ، واي يوم في رزئه ومصيبته يعادل هذا اليوم ، يوم مات فيه احمد ، يوم غير ما يتصوره الناس ويظنونه ، فلقد انقطع فيـه الوحي عن المسلمين هذا الذي كان يعم الكون جميعاً فيملأه نوراً وبهجة واشراقا .

وحسان اذ يتحدث عن الوحي في رثائه للنبي ليبرهن برهاناً قاطعا ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يتلقى الأمر من السماء ، من الله ، وان جبريل هو الذي كان يهبط عليه بالوحي ، وما دام محمد قد انتقل الى الرفيق الاعلى فلا امل بعد اليوم بهذا النور ، ولا خبر بعد اليوم من اخبار السماء .

وَرَاحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُّهُمْ
وَقَدْ وَهَنَتْ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
يُبَكُّونَ مَنْ تَبْكِي السمواتُ يَوْمَهُ
وَمَنْ قَدْ بَكَتْهُ الأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ
وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْماً رَزِيَّةُ هَالِكٍ
رَزِيـةَ يَوْمٍ مَاتَ فيـه مُحَمَّدُ .

تَقَطَّعَ فِيهِ مَنْزِلُ ٱلْوَحْيِ عَنْهُم
وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ وَيُنْجِدُ

وتراه هنا بعد هذا الرثاء الحزين ، وبعد تأريخه وفاة النبي في المدينة المنورة ووصفه القبر ، وساعة الدفن والجماعات التي ودعته وبكته ، وبعد ان يصف حالتهم بعد وفاته ، وكيف انقطع عنهم الوحي ، يذكر مكانته بينهم وانه كان صلى الله عليه وسلم امامهم يهديهم الى الحق ويرشدهم الى الخير مكلفا نفسه كل ما بوسعها لاسعادهم ، معلمهم الامين الصادق من يسمع عنه ويتبعه يبلغ مناه ويكون من السعداء ، وانه عفو كريم لايشدد عليهم في الخطيئات البسيطة التي يرتكبونها لانه سمح يقبل اعتذاراتهم ، ويعدهم الخير اذا احسنوا ، ويؤكد لهم ان الله تعالى يضاعف لهم الثواب ويمن عليهم من فضله ، وانه كان رؤوفا بهم يتغاضى عن كثير من هفواتهم ، فكان اذا ما اشتدت عليهم الظروف ، ييسر لهم الامور ويذللها لهم بما يهديهم من سواء السبيل .

إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمُ الْحَقَّ جَاهِداً
مُعَلِّمُ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعوه يَسْعَدُوا
عَفُوٌّ عن الزلَّاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ
وَإِنْ يُحْسِنُوا فَاللهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ

وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْدِهِ

فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيرُ ما يَتَشَدَّدُ

فاذا خلص حسان من كل ذلك راح يصف حالهم وانهم بينهم في هذه النعمة العظمى تحوطهم يفوزون بحب النبي ، ترعاهم عينه، ويرشدهم قلبه ، ويهديهم سواء السبيل ، وهو حريص عليهم بالمؤمنين رؤوف رحيم ،حريص ان يستقيموا ويهتدوا ويعملوا الخير ، وانهم لكذلك في هذا النور الالهي مطمئنون اليه ، إذ جاء سهم الموت قاصداً هذا السراج المنير المشع فأصابه وأودى به ، وعندها انطفأ النور ، وخبا الشعاع ، وعاد محمد الى ربه راض عنهم مخلفا بينهم كتاب الله وسنته ، واذا الملائكة في هذه العودة تشارك القوم بكاءه ، وتشاركه حزنه ، وتشاركه صلاته على النبي المصطفى واذا العرب اليوم يعبدون الله ،والملائكة ايضا ،تشاركهم عبادتهم وصلاتهم ،وان كانت صلاتهم غير صلاة هؤلاء ،وان هذه البلاد المقدسة قد اضحت بعد وفاة النبي الاعظم موحشة مقفرة لا تطمئن اليها النفس لعظم الهول الذي حط بها كما ان المسجد الحرام اضحى موحشا ،بينما كان النبي في قيامه وقعوده فيه يبدد الوحشة الى انس فينشر في ارجائه الحب والرحمة والاطمئنان .

فَبَيْنَاهُمُ فِي نِعْمَةِ اللهِ بَيْنَهُمْ

دَلِيلٌ بِهِ نَهْجُ الطَّرِيقَةِ يُقْصَدُ

عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيدُوا عَنْ الهُدَى
حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيموا و يَهْتَدُوا
فَبَيْنَاهُمُ فِي ذَلِكَ النُّورِ إذ غَدا
إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ المَوْتِ مُقْصِدُ
فَأَصْبَحَ مَحْمُودًا إِلى اللهِ راجعاً
يُبَكِّيهِ جَفْنُ المُرْسَلَاتِ وَ يَحْمَدُ
وَأَمْسَتْ بِلَادُ الْحَرْمِ وَحْشاً بِقَاعُها
لِغَيْبَةِ ما كانَتْ منَ الوحْيِ تَعْهَدُ
وَمَسْجِدُهُ فَالمُوحِشَاتُ لِفَقْدِهِ
خَلَاءٌ لَهُ فِيهِ مَقَامٌ وَمَقْعَدُ

فاذا جاء حسان على هذا التصوير في شعره، راح يصف ديار الحجاز وما اصابها بعد وفاة النبي، وانه لمخاطب نفسه طالب اليها ان تبكي رسول الله بدمع منهمر متواصل لا يراه يجف ولا ينقطع مدى الحياة، وتراه يدفعها على البكاء الغزير المندفع، ويسألها ملحاً ان تبكي الرسول الاعظم بصوت مرتفع لأن الدهر سوف لن يجود بمثله ابداً، ولن يجود، وان البشرية لم تفقد قبل اليوم رجلاً كمحمد ولن تفقد مثله حتى تقوم الساعة، وانه بعد ان يعـــدّ

صفاته واخلاقه هذه التي عرفتها الانسانية ، يسأل الله تعالى ويرجوه ملحّاً متأملاً ان يجمعه مع النبي المختار في جنات الخلد فيكون له جاراً ، وانه سيسعى ليفوز بهذا الشرف العظيم ، فهو سيسلك سبل الخير والصلاح ، سبل محمد وهديه ليفوز بلقاه .

فَبَكِّي رَسُولَ ٱللهِ يَا عَيْنُ عَبْرَةً
وَلاَ أَعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعَكِ يَجْمَدُ
فَجُودِي عَلَيْهِ بِٱلدُّمُوعِ وَأَعْوِلِي
لِفَقْدِ الَّذِي لامِثْلُهُ الدَّهْرَ يُوجَدُ
وَمَا فَقَدَ المَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ
وَلاَ مِثْلُهُ حَتَّى القِيامَةِ يُفْقَدُ
مَعَ ٱلْمُصْطَفى أَرْجُو بِذَاكِ جِوَارَهُ
وَفِي نَيْلِ ذَاكَ ٱلْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ .

هذا حسان بن ثابت شاعر النبي الاعظم الذي آمن بمحمد ايماناً صادقاً ، وتبعه وجاهد في سبيل دعوته ، واوقف نفسه وادبه على نشر هذه الرسالة الجديدة التي عم خيرها الجزيرة العربية وتعداها الى ارجاء الارض جميعاً ، وهذا حسان الشاعر قدمناه صورة صادقة خالصة من كل شعور ، بعيدة عن كل تأثير وانه في كل هذه الصور التي قدمناه بهـــا ليبدو موقفه واضحاً من الدعوة الجديدة ورسوخ العقيدة في اعماقه .

- ١٠ -

وحسان الذي بدل الاسلام من عقيدته وطبائعه وادبه ايضاً يجمع النقاد وفي طليعتهم الاصمعي عـــلى القول « ان شعر حسان في الجاهلية اقوى منه في الاسلام من حيث التذكار والخيـــال والمتانة » وفي رواية ان حسان سئل عن هذا فقال : ان الاسلام حرم الكذب ، والشعر لا يحمله الا الكذب ، والخيال والتذكار لا يقومان الا على هذا النوع من القول » أما متانة الشعر فأراها ضعيفة عند حسان في اسلامياته لكبر سنه ، وبالتالي لانصرافه في هذا الشعر الى التاريخ والتزامه اسماء واماكن ومواقع كان حريصاً على ذكرها في شعره فأجبر مجاراة لمقتضى الموضوع ان يتساهل في سبك الشعر ، وعلى كل ترانا نعرض انموذجاً لشعره الجاهلي ما دمنا قد اشرنا الى ان شاعرنا كان في الجاهلية يتنقل بين بلاط الغساسنة في الشام ، وبلاط المناذرة في العراق ، فهذا الانموذج مع قلة عدد ابياته يبين بوضوح متانة شعره وجذالة الفاظه ، ويبين ايضاً مابدل الاسلام من عقلية الشاعر وآرائه وتصرفاته ، ويصوره لك تصويراً صحيحاً في عاداته وتقاليده من جهة اخرى ، وحسان في هـــذه الابيات التي سنقدمها يذكر تلك الفئة من ابناء ملوك غسان وتراه

يستعيد من ذكرياتها الغابرات وايامها الماضيات ، وكيف كان يجالسها ويشاركها الخمرة ويسأل الله ان يكافئها بالخير ويمن عليها بالنعم لأنه يراها جديرة بذلك ، وانه ليذكر من ايامها يوم كان يجالس اولاد جفنة ، ملك غسان ابن مارية المعروفة بذات القرطين قرب دمشق ، وانه يراهم فضلاء اكارم طالما اعتادوا قرى الضيف واكرامه حتى ان كلابهم قد اعتادت نزول الغرباء في ديارهم فهي اذا رأت من لا تعرفه فلا تنبح ايماناً منها بانه ضيف غريب محتاج الى كرم اسيادها وعطفهم .

وتراه يؤكد مع ذلك ان هذا الضيف الذي يهبط قصورهم في « البريص » سيلقى عندهم من الكرم والسخاء والشراب ما يطمئن اليه ، وانهم لأبناء نعمة ، فهم في سعة من الرزق والخير ، تسقيهم الغيد الحسان درياق الرحيق ، وانهم لأنفتهم ، وعظم نفوسهم وسعة ملكهم لا يرسلون اولادهم لنقف الحنظل كما ترسل العرب اولادها ، وانهم شرفاء في اقوالهم ، اصحاب عز ومجد وسؤدد حتى انهم سادة الطبقة الاولى . وحسان إذ يصفهم هذا الوصف الجميل الدقيق يذكر كيف قضى بين ظهرانيهم مدة طويلة ثم زايلهم ، واخذ الآن يذكر تلك الايام الغابرات ويستعيد تلك الصور الجميلة على نفسه فلا يحظى بغير الذكرى ... الذكرى التي عاش عليها حسان في اواخر ايامه ، والتي ذكرتهم به فبعثوا له وهو شيخ كبير بهباتهم وعطاياهم .

لِلّهِ دَرُّ عِصَابَةٍ نَادَمْتُهُمْ يَوْماً بِجِلَّقَ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ

أَوْلَادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمِ
قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ

يُغْشُوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ
لاَ يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمِ
بَرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

يُسْقَوْنَ دِرْيَاقَ الرَّحِيقِ وَلَمْ تَكُنْ
تُدْعَى وَلاَئِدُهُمْ لِنَقْفِ الْحَنْظَلِ

بِيضُ الْوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ
شُمُّ الْأُنُوفِ مِنَ الطِّرَازِ الأَوَّلِ

فَلَبِثْتُ أَزْمَانًا طِوَالاً فِيهِمِ
ثُمَّ ادَّكَرْتُ كَأَنَّنِي لَمْ أَفْعَلِ

فهذه الأبيات الجميلة المتينة تكفي للدلالة على شاعرية حسان المبدعة وهي توافق رأي الاصمعي في نقده لشعر حسان ، ثم هي تشير الى ان حسان كان يقارع الخمرة قبل الاسلام ونحن لا ننكر ذلك ، اما ان حسان ظل مدمنا على الخمرة بعد الاسلام

فهذا لا نقر احد النقاد المحدثين عليه ، وترانا نثبت هنا هذا الرأي ثم نحاول نقده . « ولم يحوله الاسلام عن هذه العادة فهو يتابع الشرب واللهو والسماع كمن ذي قبل ويصف الخمرة حتى في مدائحه للنبي ويسمع الغناء حتى بحضر النبي على قول ابن عباس (١) ويتأسف حتى في آخر حياته على مجالس اللهو والسرور في بلاط ابناء جفنة . »

هذا هو رأي احد النقاد المحدثين ، ونراه يرد اعتقاده هذا الى مطلع احدى قصائد الشاعر التي يتبع فيها اسلوب الجاهليين التقليدي وهو المطلع من القصيدة الاسلامية التى ذكرناها في عرض البحث والتي هجا بها ابا سفيان قبل فتح مكة وتوقع فيها النصر للمسلمين .

عَفَتْ ذَاتُ ٱلأَصَابِعِ فَٱلْجَوَاءُ
إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلَاءُ (١)
دِيَارٌ مِنْ بَنِي ٱلْحَسْحَاسِ قَفْرٌ
تُعَفِّيهَا الرَّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ (٢)

---

(١) ابن الاثير : اسد الغابة ٥ : ٤٩٦ ، الاغاني ١٠ : ١٦٩ .

(١) ذات الاصابع والجواء ، موضعان باكناف دمشق ، وعذراء موضع على بريد دمشق .

(٢) يقول ديار خالية من بني الحسحاس ، وهم قوم من العرب ومن اولاد الحساحس بن مالك بن عدي بن النجار وعبد بني الحسحاس شاعر معروف اسمه سحيم . قال ابن فارس : الحسحاس هو الذي يطرد الجوع بسخائه ولعل حسان يريد هنا انهم بنو الجود والكرم .

وَكَانَتْ لاَ يَزَالُ بِها أَنِيسٌ

خَلاَلَ مُرُوجِها نَعَمٌ وَشَاءُ

وهنا وبعد ان يصف حسان الديار على اسلوب الجاهليين التقليدي ينتقل الى وصف الأحبة وهي غير الطريقة التى اختطها من قبل امرؤ القيس، وأود ان يلاحظ هنا الانتقال السريع بين ذكر الديار وذكر الأحبة واستعمال لفظة «دع» هذه اللفظة التي كثيراً ما يستعملها حسان في انتقالاته .

فَدَعْ هَذا وَلٰكِنْ مَنْ لِطَيْفٍ

يُؤَرِّقُنِي إِذا ذَهَبَ العِشَاءُ (٣)

لِشَعْثَاءَ ٱلَّتِي قَدْ تَيَّمَتْهُ

فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ (٤)

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ

يَكُونُ مِزَاجُهَا عَسَلٌ وَمَاءُ (٥)

---

(٣) يقول دع هذا اي الفصل بين ذكر الديار وذكر الحبيبة وما لقيت من جرائها ـ الطيف : الخيال • ـ يؤرقني : يسهرني . وقوله اذا ذهب العشاء : يريد اذا آن النوم والعشاء اول الظلام من الليل .

(٤) شعثاء على قول الرواة انها بنت سلام بن مشكم اليهودي . وفي نوادر ابن الاعرابي انها من خزاعة وقد شبب بها الشاعر .

عَلَى أَنْيَابِهَا أَوْ طَعْمَ غَضٍّ
مِنَ التُّفَاحِ هَصَّرَهُ الْجَنَاءُ (٦)

إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَوْمًا
فَهُنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ (٧)

نُوَلِّيهَا الْمَلَامَةَ إِنْ أَلَمْنَا
إِذَا مَا كَانَ مَغَثٌ أَوْ لِحَاءُ (٨)

وَنَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا وَأُسْدًا مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ (٩)

(٥ و ٦) شبه طعم رضابها بطعم خمر قد مزجت بعسل وماء او بطعم تفاح غض، فالسبيئة الخمر سميت بذلك لأنها تستب اي تشترى لتشرب ولا يقال ذلك الى في الخمر.

(٧) يقول اذا ذكرت الاشربة جميعاً عدا الراح فهن لها فداء. يفضل الخمر على سائر الأشربة.

(٨) يقول نحمل عليها اللوم وقوله ألمنا اي أتينا ما نلام عليه. والمغث الشر والقتال، واللحاء السباب.

(٩) النهنهة الكف: تقول نهنهت فلانا اذا زجرته اي امتنع: قالوا وهذا البيت آخر ما قاله حسان من هذه القصيدة في الجاهليه. قال مصعب الزبيري كان حسان قد ابتدأ هذه القصيدة في الجاهلية ثم أكملها في الاسلام من عند قوله عدمنا خيلنا ان لم تروها. قال وهجم حسان يوما على فتية من قومه يشربون الخمر فنقم منهم ذلك وأنكره فقالوا: يا ابا الوليد ما أخذنا هذا الا منك، وأنا لنهم بتركها فيثبطنا عن ذلك قولك: ونشربها فتتركنا ملوكاً واسداً. فقال حسان هذا شيء قلته في الجاهلية، والله ما شربتها منذ اسلمت.

فحسان اذن ينقلك نقلاً سريعاً من تلك الديار بعد ان يصف ما الم بها وكيف عفت بها الرياح والامطار ، وكم كان فيها من مرج تكللَ منه القطعان ، وانها لم تك تخلو من انيس ، الى ذكر حبيبه هذا الذي كان يؤرقه اذا قدر له ان يستلقي على فراشه بعد العشاء ويصفها لك وصفاً جميلاً ، وان رضا بها لعذوبته وحلاوته كان كالخمرة التي تشرى من « بيت رأس » هذه المدينة في الاردن وكانت مشهورة بالخمرة المعتقة ، وكان هذا الرضاب اشبه شيء بهذه الخمرة التي مزجت بماء وعسل ، او ان طعمه كطعم تفـــاح لذيذ ناضج ، وهنا ودونما قصد يروح فيصف الخمرة وان الأشربة لو قيست بها لفازت هذه عليها جميعاً . وانهم عندما كانوا يدمنون شرابها وتُذهب منهم النشاط والتفكير ، وكانوا يأتون اعمالاً ويتكلمون بالفاظ لا تليق ان تصدر عنهم ، كانوا يحيلون على الخمرة الملامة ، وكانوا عندما تأخذ من نفوسهم ، واجسامهم وعقولهم يتصورون انفسهم قد اصبحوا ملوكاً او اسداً ولم يكـونوا ليرتدعوا عن شيء .

فهذا هو المطلع اثبتناه ، وقدمنا ما فيه من معان ، وما سعى له حسان وهو رغبة منه في مجاراة الاسلوب التقليدي قدم به قصيدته الاسلامية التي اشرنا اليها والتي تبدأ بهذا البيت .

وقد عاب بعضهم حسان فزعم انه بهذا قصر في الفخر . فيبدو جلياً بأن حسان لم يشرب الخمرة في الاسلام اطلاقاً ، انما رغب ان يهجو ابا سفيـان على طريقة الجاهليين فاستخدم الأبيات الاولى التي سبق له ان نظمها في الجـاهلية . وبذلك نبرىء حسان من ان يشرب الخمرة في الاسلام .

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
تُثِيرُ ٱلنَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءُ

هذا ويشير النقاد والمؤرخون ومنهم مصعب الزبيري الى ان حسان كان قد نظم هذا المطلع في الجاهلية وجعله مقدمة لقصيدته هذه ، فلا مجال إذا للشك ان حسان ظل في الاسلام يشرب الخمرة ويصفها بدليل ان الاستاذ الناقد أشار عندما احب ان يقدم هذه القصيدة الى الاسلوب التقليدي حيث قال . « لم يترك حسان حتى في هذه القصيدة الشهيرة الاسلوب التقليدي في الشعر القديم فبدأ بذكر الاطلال ، فالغزل فالخمرة نفسها حتى وصل الى ذكر الفتح فافتخر بشجاعة المسلمين وبالعون الالهي ، وحدث محمدا ورد « على ابي سفيان » وترى هنا يقول « بالخمرة نفسها » ووصف الخمرة من ضروريات الاسلوب التقليدي فالاستاذ يقر اذن ان حسان قدم هذه القصيدة بهذا المطلع حرصا منه على الاسلوب التقليدي فكيف اراه بعد ذلك يقول انه شرب الخمرة في الاسلام فمما لاشك فيه ان الاستاذ لم يطلع على رأي النقاد وخاصة على رأي مصعب الزبيري ، بأن حسان نظم هذا المطلع في الجاهلية واتم القصيدة في الاسلام ، ودليل آخر ان اكثر مؤرخي الادب العربي وفي طليعتهم الاستاذ بطرس البستاني صاحب « ادباء العرب » عندما يتحدث عن اسلاميات حسان الشعرية يثبت القصيدة بالبيت الاول ومطلعه « عندما خيلنا ان لم تروها . »

هذا شاعرنا حسان بن ثابت ، صورة صادقة لتلك الحقبة التي

شهدت فيها الجزيرة العربية قبس الضياء ، وشعاع النور ، ونبراس الحق ، محمد بن عبد الله ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان شاعرنا الى جانبه منذ ان وطأت اقدام النبي يثرب ، يقف الى جنبه في الملمات ، ويدافع عنه بشعره ، امام القبائل والخصوم الذين رأوا في دعوته هدما لأمجادهم وقضاءً على ثرواتهم ، ونفوذهم ، ويؤرخ مواقع المسلمين فيسجل في التاريخ الاسلامي انصع صفحة من هذا التاريخ الحافل بالامجاد ، ويظل حسان كذلك هذه القيثارة العازفة حتى يبلغ من الكبر عتيا ، فتتلاشى الحانه ، ويضعف صوته ، ويفقد بصره ويوافيه الأجل(١) وهو اطيب الناس نفسا ، واسرعهم إلى الجنة دخولا ، هناك يلقى ما وعد به ، والى الجنة يقود جموع الشعراء . بقول النبي الأعظم (٢)

---

(١) يجمع النقاد على ان حسان توفي سنة ٥٠ للهجرة ٦٧٠ للميلاد .

(٢) جاء في الحديث ان النبي قال :

« امرؤ القيس صاحب لواء الشعر وقائدهم الى النار ، وحسان بن ثابت يقود جموعهم الى الجنة . »

منتخبات

النبي يدعو الناس

في هذه الأبيات يؤرخ حسان تلك الحقبة التي دعى اثناءها النبي اهل مكة للدخول في الاسلام ، ويصف ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من قريش :

●

ثَوَى في قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةٍ
يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى صَدِيقاً مُؤَاتِيا (١)
وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ ٱلْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ
فَلَمْ يَرَ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرَ دَاعِيَا
فَلَمَّا أَتَانَا وَٱطْمَأَنَّتْ بِهِ ٱلنَّوَى
فَأَصْبَحَ مَسْرُوراً بِطِيْبَةَ رَاضِيا (٢)
وَأَصْبَحَ لا يَخْشَى عَدَاوَةَ ظَالِمٍ

(١) ثوى : اقام . المؤاتي : الموافق .
(٢) فلما اتانا : اي عندما اتى الأنصار في المدينة . بطيبة : المدينة المنورة كما سماها النبي .

قَرِيبٍ ولا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ بَاغِيا
بَذَلْنَا لَهُ الأَمْوالَ مِنْ جُلِّ مَالِنَا
وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَغَى وَالتَّآسِيا (٣)
نُحَارِبُ مَنْ عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِم
جَمِيعاً وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمُصَافِيا
ونَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لاَ رَبَّ غَيْرُهُ
وَأَنَّ كِتَابَ اللهِ أَصْبَحَ هَادِيا .

(١) يقول بذلنا له اموالنا ونفوسنا ومؤاساتنا .

وقال في النبي :

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللهِ أَنَّ مُحَمَّداً
رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمٰواتِ مِنْ عَلُ (١)

وَأَنَّ أَبَا يَحْيٰى وَيَحْيٰى كِلاَهُمَا
لَهُ عَمَلٌ فِي دِينِهِ مُتَقَبَّلُ (٢)

وَأَنَّ الَّتِي بِالْجِزْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ
وَمَنْ دَانَهَا فِلٌّ مِنَ الخَيرِ مَعْزِلُ (٣)

---

(١) عل ظرف مكان مبني على الضم في محل جر بمعنى فوق .

(٢) يحيى هو سيدنا يحيى ، وابوه زكريا عليهما السلام .

(٣) بطن نخلة : موضع بالحجاز . من دانها : اي ومن دان بها. الفل الذي لا خير عنده . ويقصد حسان (التي بالجزع .) صنم لقريش اقاموا عليه بيتا وجعلوا له سدنة فهدمه خالدبن الوليد بأمر النبي.

وَأَنَّ الَّذِي عَادَى الْيَهُودُ ابْنَ مَرْيَمٍ
رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُرْسَلُ
وَأَنَّ أَخَا الأَحْقَافِ إِذْ يَعْذُلُونَهُ
يَقُومُ بِدِينِ اللهِ فِيهِمْ فَيَعْدِلُ (٢)

---

٢ ـ أخو الأحقاف سيدنا هود ، والأحقاف ديار عاد وقال تعالى :
« واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف . »

وقال يفتخر :

اللهُ أَكْرَمَنا بِنَصرِ نَبِيِّهِ
وَبِنَا أَقَامَ دَعَائِمَ الإِسْلامِ

وبِنَا أَعزَّ نَبيَّهُ وكِتَابَهُ
وَأَعَزَّنَا بالضَّرْبِ والإِقْدَامِ

فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ تُطِيرُ سُيُوفُنَا
فِيهِ الْجَمَاجِمَ عَنْ فِراخِ الْهامِ (١)

يَنْتَابُنَا جِبْرِيلُ فِي أَبْيَاتِنَا
بِفَرائِضِ الْإِسْلَامِ والأَحْكَامِ

---

١ ـ فرخ الرأس : الدماغ.

يَتْلُو عَلَيْنَا النُّورَ فِيها مُحْكَماً
قِسْماً لَعَمْرُكَ لَيْسَ كالأقسَامِ

فَنَكُونُ أَوَّلَ مُسْتَحِلٍّ حَلاَلِهِ
وَمُحَرِّمٍ لله كُلَّ حَرَامِ

نحن ٱلْخِيَارُ مِنَ ٱلْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
وَنِظَامُهَا وَزِمَامُ كُلِّ زِمَامِ

ٱلْخَائِضُو غَمَراتِ كُلِّ مَنِيَّةٍ
والضَّامِنُونَ حَوَادِثَ الأَيَّامِ

سَائِلْ أَبَا كَرِبٍ وسَائِلْ تُبَّعاً
عَنَّا وَأَهْلَ العِتْرِ وٱلأَزْلاَمِ (١)

---

١ ـ ابو كرب : هو ابو كرب اليماني ملك من ملوك حمير . قوم تبع : من اليمن ، وحسان من اليمن ايضاً . العتر ، هي الذبيحة التي كانت تنحر للصنم .

وأسْأَلْ ذَوِي الأَلْبابِ عَنْ سَرَواتِهم
يَوْمَ العُهَيْنِ فَحاجِرٍ فَرُؤامِ (١)

إِنَّا لَنَمْنَعُ مَنْ أَرَدْنا مَنْعَهُ
وَنَجُودُ بِالْمَعْرُوفِ لِلْمُعْتامِ (٢)

وَتَرُدُّ عادِيَةَ الْخَمِيسِ سُيُوفُنا
وَنُقِيمُ رَأْسَ الأَصْيَدِ الْقَمْقامِ

مَا زالَ وَقْعُ سُيُوفِنا وَرِماحِنا
فِي كُلِّ يَوْمِ تَجالُدٍ وتَرامِ

حَتَّى تَرَكْنا الأَرْضَ سَهْلاً حَزْنُها
مَنْظُومَةً مِنْ خَيْلِنا بِنِظامِ

فَلَئِنْ فَخَرْتُ بِهِمْ لَمِثْلُ قَدِيمِهِمْ
فَخَرَ اللَّبِيبُ بِهِ عَلَى الأَقْوامِ

---

١ ــ السروات : الاشراف . يقول ان السروات في هذه الايام ــ ايام العهين، وحاجر، ورؤام كانوا منا.

٢ ــ المعتام : المختار.

وقال في الفخر يرد على قيس بن الخطيم (١)

لَعَمْرُ أَبِيكِ الْخَيْرِ يَا شَعْثَ مَا نَبَا
عَلَيَّ لِسَانِي فِي الْخُطُوبِ وَلاَ يَدِي (٢)

لِسَانِي وسَيْفِي صَارِمَانِ كِلاَهُمَا
وَيَبْلُغُ مَا لاَ يَبْلُغُ السَّيْفُ مِذْوَدِي (٣)

وَإِنْ أَكُ ذَامَالٍ قَلِيلٍ أَجُدْ بِهِ
وَإِنْ يُهْتَصَرْ عُودِي عَلَى الْجَهْدِ يُحْمَدِ (٤)

---

١ ــ قيس بن الخطيم شاعر جاهلي .

٢ الخير نعت لأبيك ــ يا شعث يريد ياشعثاء فأما قرأتها بضم التاء او بفتحها . نبا : امتنع .

٢ ــ صارمان : قاطعان . المذود : اللسان .

٤ ــ يقال هصرت الغصن وبالغصن واهتصرته اذا أخذت برأسه فأملته اليك.

فَلاَ ٱلْمَالُ يُنْسِينِي حَيَائِي وَعِفَّتِي
وَلاَ وَاقِعَاتُ الدَّهْرِ يَفْلُلْنَ مِبْرَدِي (١)

أَكُفُّ أَهْلِي مِنْ عِيَالٍ سِوَاهُمُ
وَأَطْوِي عَلَى ٱلْمَاءِ القَرَاحِ الْمُبَرَّدِ (٢)

وَإِنِّي لَمُعْطٍ مَا وَجَدْتُ وَقَائِلٌ
لِمُوقِدِ نَارِي لَيْلَةَ الرِّيحِ أَوْقِدِ

وَإِنِّي لَقَوَّالٌ لَدَى الْبَثِّ مَرْحَباً
وَأَهْلاً إِذَا مَاجَاءَ مِنْ غَيْرِ مَرْصَدِ (٣)

وَإِنِّي لَيَدْعُونِي النَّدَى فَأُجِيبُهُ
وَأَضْرِبُ بَيْضَ العَارِضِ الْمُتَوَقِّدِ (٤)

---

١ ــ يفللن : الفل التلم فله يفله فلا . والمبرد : ما ينحت به وهنا كناية عن الصبر والجلد .

٢ ــ طوى : يطوي : تعمد الجوع . المعنى انني ابيت جائعاً مكتفيا بالماء ايثاراً لغيره . كما اضم الى اهلي غيرهم واعولهم .

(٣) يقول انه يحتفي بضيافته وقت الشدة والاسى والخوف .

(٤) الندى السخاء . وقوله اضرب ــ يقول اني اسبق المطر في البذل . العارض : السحاب .

وَإِنِّي لَحُلْوٌ تَعْتَرِينِي مَرَارَةٌ
وَإِنِّي لَتَرَّاكٌ لِمَا لَمْ أُعَوَّدِ
وَإِنِّي لِمِزْجَاءِ الْمَطِيِّ عَلَى الْوَجَى
وَإِنِّي لَتَرَّاكُ الْفِرَاشِ الْمُمَهَّدِ (١)
حُسَامٍ وَأَرْمَاحٍ بِأَيْدِي أَعِزَّةٍ
مَتَى تَرَهُمْ يَا ابْنَ الْخَطِيمِ تَبَلَّدِ (٢)
لُيُوثٍ لَهَا الْأَشْبَالُ تَحْمِي عَرِينَهَا
مَدَاعِيسُ بِالْخَطِّيِّ فِي كُلِّ مَشْهَدِ (٣)
فَقَدْ ذَاقَتِ الْأَوْسُ الْقِتَالَ وَطُرِّدَتْ
وَأَنْتَ لَدَى الْكُنَّاتِ فِي كُلِّ مَطْرَدِ
نَفَتْكُمْ عَنِ الْعَلْيَاءِ أُمٌّ لَئِيمَةٌ
وَزَنْدٌ مَتَى تُقْدَحْ بِهِ النَّارُ يَصْلَدِ (٤)

(١) رجل فرجاء للمطي : اكثر الارخاء، اي يرسلها .
(٢) ابن الخطيم هو قيس الذي يرد عليه .
(٣) الخطى : الرماح . وهو ايضاً من الهند يحمل منها الى الخط وهي مرفأ السفن القادمة من الهند .
٤ – تقول صلد الزند بكسر اللام يصلد صلودا اذا صوت ولم يخرج ناراً والمعنى: المنبت لئيم، والكف شحيح، ولئم مع ذلك للهيجاء فمن اين لكم العلياء.

وقال يفتخر بنسبه :

أَلَمْ تَرَنَا أَوْلَادَ عَمْرِ وبْنِ عَـامِرِ
لَنَـا شَرَفٌ يَعْلُو عَلَى كلِّ مُرْتَقى

رَسَا فِي قَرَارِ الأَرْضِ ثمَّ سَمَتْ لَهُ
فُرُوعٌ تُسَامِي كُـلَّ نَجْمٍ مُحَلِّـقِ

مُـلُوكٌ وَأَبْنَـاءُ الْمُلُوكِ كأَنَّنَا
سَوَارِي نُجومٍ طَالِعَاتٍ بِمَشْرِقِ

إِذَا غَابَ مِنْهَـا كَوْكَبٌ لاَحَ بَعْـدَهُ
شِهَابٌ مَتَى مَا يَبْدُ لِلأَرْضِ تُشْرِقِ

لِكلِّ نَجِيبٍ مُنْجِبٍ زَخَرَتْ بِهِ
مُهَذَّبَةٌ أَعْرَاقُهَا لَمْ تُرَهَّقِ (١)

أَتَانَا رَسُولُ اللهِ لَمَّا تَجَهَّمَتْ
لَهُ الأَرْضُ يَرْمِيهِ بِهَا كُلُّ مُوفِقِ (٢)

فَكُنَّا لَهُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ مَعْقِلاً
أَشَمَّ مَنِيعاً ذَا شَمَارِيخَ شُهَّقِ (٣)

تَذُودُ بِهَا عَنْ أَرْضِهَا خَزْرَجِيَّةٌ
كَأُسْدِ كَرَاءٍ أَوْ كَجِنَّةِ نَمْنَقِ (٤)

---

(١) النجيب : الكريم . الحسيب اذا خرج خروج ابيه في الكرم . المهذبة : المخلصة النقية . لم ترهق : لم تدنس .

(٢) تجهمت له الارض : اي تنكرت له بذلك ، بتنكر قريش وغير قريش . موفق : تقول اوفقت السهم اذا جعلت فوقه في الوتر لترمي به ، ويقال اوفق القوم الرجل : اي دنوا منه واجتمعت كلمتهم عليه .
وحسان يريد ان يصف حالة النبي عند الهجرة وكيف تنكر له القرشيون .

(٣) فكنا له الأوس والخزرج . معقل : ملجأ . اشم : مرتفع . منيعاً : اذا لم يرم . شماريخ :الروؤس الدقيقة المستديرة في اعالي الجبال. شهق. المرتفعة .

(٤) خزرجية قبيلة الخزرج . واصل الخزرج ريح جنوبية انفع من الريح الشمالية . كراء وغنق : موضعان . الجنة : الجن .

تُؤَازِرُهَا أَوْسِيَّةٌ مَالِكِيَّةٌ
رِقَاقُ سُيُوفٍ كَالْعَقَائِقِ ذُلَّقِ (١)

نَفَى الذَّمَّ عَنْهَا كُلَّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ
طِعَانُ كَتَضْرِيمِ الْأَبَاءِ الْمُحَرَّقِ (٢)

وَإِكْرَامُنَا أَضْيَافَنَا وَوَفَاؤُنَا
بِمَا كَانَ مِنْ إِلٍّ عَلَيْنَا وَمَوْثِقِ (٣)

فَنَحْنُ وُلَاةُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ
مَتَى مَا نَقُلْ فِي النَّاسِ قَوْلاً نُصَدَّقِ

تُوَفَّقُ فِي أَحْكَامِنَا حُكَمَاؤُنَا
إِذَا غَيْرُهُمْ فِي مِثْلِهَا لَمْ يُوَفَّقِ

---

(١) تؤازرها: تعينها . العقائق :جمع عقيقة ، والعقيقة، البرق اذا رأيته في وسط السحاب كأنه سيف مسلول .

(٢) كتضريم الاباء المحرق : اجمة الحلفاء والقصب خاصة وقيل الاجمة مطلقاً واحدته اباءة وهي القطعة من الحلفاء اوالقصب ، شبه القتال بالحريق .

(٣) الأل : العهد .

وقال في الفخر :

وَكُنَّا مُلُوكَ ٱلنَّاسِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ
فَلَمَّا أَتَى الإِسْلامُ كَانَ لَنَا ٱلفَضْلُ
وَأَكْرَمَنَا اللهُ الَّذِي لَيْسَ غَيْرُهُ
إِلٰهٌ بِأَيَّامٍ مَضَتْ مَا لَهَا شَكْلُ(١)
بِنَصْرِ ٱلإِلٰهِ لِلنَّبِيِّ وَدِينِهِ
وَأَكْرَمَنَا بِٱسْمٍ مَضَى مَا لَهُ مِثْلُ
أُولٰئِكَ قَوْمِي خَيْرُ قَوْمٍ بِأَسْرِهِمْ
وَلَيْسَ عَلَى مَعْرُوفِهِمْ أَبَداً قُفْلُ(٢)

---

(١) ما لها شكل : ما لها مثيل .
(٢) وليس على معروفهم ابداً قفل : يقول ان باب معروفهم مفتوح لكل عاف .

وَجَارُهُمُ فِيهِمْ بِعَلْيَاءَ بَيْتُهُ
لَهُ مَا ثَوَى فِينَا الكَرَامَةُ وَالْبَذْلُ (١)

وَقَائِلُهُمْ بِالْحَقِّ أَوَّلُ قَائِلٍ
فَحُكْمُهُمُ عَدْلٌ وَقَوْلُهُمُ فَصْلُ

إِذَا حَارَبُوا أَوْ سَالَمُوا لَمْ يُشَبَّهُوا
فَحَرْبُهُمُ خَوْفٌ وَسِلْمُهُمُ سَهْلُ (٢)

وَمِنَّا أَمِينُ الْمُسْلِمِينَ حَيَاتُهُ
وَمَنْ غَسَّلَتْهُ مِنْ جَنَابَتِهِ الرُّسْلُ (٣).

---

(١) بعلياء : المكان المرتفع . ما ثوى فينا : ما اقام بيننا .

(٢) لم يشبهوا : اي لا يشبههم احد .

(٣) يريد بأمين المسلمين سعد بن معاذ الاوسي الذي اهتز العرش لموته وهو الذي حكم في بني قريظة ، فلما حكم قال له النبي لقد حكمت بحكم الله ، واما من غسلته الرسل « اي الملائكة » فهو حنظلة بن ابي عامر ، خرج يوم أحد حين نادى ابليس قتل محمد فخرج جنباً وقال لئن كان قتل فلا خير في الحياة بعده ، فقتل فغسلته الملائكة .

مواقع المسلمين

•

وقد عرفت عند العرب بالأيام ، وايام حسان ، هذه المواقع التي خاضها المسلمون وجابهوا بها الكفر ، وحسان في تأريخه لهذه الايام يتبع طريقة جديدة في الادب ، اذ يؤرخ الموقعة مع ذكر الذين استشهدوا فيها من المسلمين، وذكر الذين قتلوا من اعدائهم ويصف عددهم وعدتهم فيترك لنا في هذه الابيات صورة واضحة عن هذه المعارك التي تعتبر وثائق في التاريخ الاسلامي. وشاعرنا لم يترك معركة او يوماً الا وأرخه ، وقد سبق لنا ان عرضنا بالتفصيل ، معركتي بدر ، وأحـــد ، ونرى هنا ان نثبت باقتضاب بعض المنتخبات لهاتين المعركتين ، ولبقية المعارك التى خاضها النبي صلى الله عليه وسلم مع اصحابه دفاعاً عن بيضة الدين ، واعلاء لكلمة الله تعالى .

قال في يوم بدر

في مطلع هذه القصيدة يذكر حسان شهداء المسلمين وكيف عاهدوا النبي على نصرته الى ان يقول :

•

وَفَوْا يَوْمَ بَدرٍ للرَّسُولِ وفَوْقَهُمْ
ظِلالُ المَنَايَا والسُّيُوفُ اللَّوَامِعُ
دَعَا فَأَجَابُوهُ بِحَقٍّ وَكُلُّهُمْ
مُطِيعٌ لَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ وسَامِعُ
فَمَا بَدَّلُوا حَتَّى تَوَافَوْا جَمَاعَةً
وَلاَ يَقْطَعُ الآجَالَ إِلاَّ المَصَارِعُ
لِأَنَّهُمُ يَرْجُونَ مِنْهُ شَفَاعَةً
إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلاَّ النَّبِيِّينَ شَافِعُ

وَذَلِكَ يَا خَيْرَ ٱلْعِبَادِ بَلاَؤُنَا
وَمَشْهَدُنَا فِي ٱللهِ وَٱلْمَوْتُ نَاقِعُ(١)
لَنَا ٱلْقَدَمُ ٱلأُولَى إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا
لِأَوَّلِنَا فِي طَاعَةِ اللهِ تَابِعُ
وَنَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمُلْكَ لِلهِ وَحْدَهُ
وَأَنَّ قَضَاءَ ٱللهِ لاَ بُدَّ وَاقِعُ.

(١) الموت ناقع : اي دائم، من نقع الماء أناقولهم سم ناقع فمعناه بالغ قاتل .

وقال حسان يوم احد ، يرد على عبدالله بن الزِّبَعْرَى السهمي قصيدته التي يقول فيها .

يَا غُرَابَ ٱلْبَيْنِ أُسْمِعْتَ فَقُلْ
إِنَّمَا تَنْطِقُ شَيْئًا قَدْ فُعِلْ

إِنَّ لِلْخَيْرِ وَلِلشَّرِّ مَدًى
وَكِلَا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبَلْ

وَٱلْعَطِيَّاتُ خِسَاسٌ بَيْنَهُمْ
وَسَوَاءٌ قَبْرُ مُثْرٍ وَمُقِلْ

كُلُّ عَيْشٍ وَنَعِيمٍ زَائِلٌ
وَبَنَاتُ الدَّهْرِ يَلْعَبْنَ بِكُلْ

أَبْلِغَا حَسَّانَ عَنِّي آيَةً
فَقَرِيضُ ٱلشِّعْرِ يَشْفِي ذَا ٱلْغُلَلْ

كَمْ تَرَى بِالْجَرِّ مِنْ جُمْجُمَةٍ
وَأَكُفٍّ قَدْ أُتِرَّتْ وَرِجِلْ

كَمْ قَتَلْنَا مِنْ كَرِيمٍ سَيِّدٍ
مَاجِدِ الْجَدَّيْنِ مِقْدَامٍ بَطَلْ

صَادِقِ النَّجْدَةِ قَرْمٍ بَارِعٍ
غَيْرِ مِلْتَاثٍ لَدَى وَقْعِ الأَسَلْ.

رد حسان (١)

*

ذَهَبَتْ بِابْنِ الزِّبْعَرَى وَقْعَةٌ
كَانَ مِنَّا الْفَضْلُ فِيهَا لَوْ عَدَلْ

وَلَقَدْ نِلْتُمْ وَنِلْنَا مِنْكُمُ
وَكَذَاكَ الْحَرْبُ أَحْيَانًا دُوَلْ

إِذْ شَدَدْنَا شَدَّةً صَادِقَةً
فَأَجَأْنَاكُمْ الى سَفْحِ الْجَبَلْ

---

(١) فحسان في هذه القصيدة التي يرد بها على عبدالله بن الزبعرى يبعث صورة صادقة لهذا اليوم الحافل بالعظات ، ولقد اشرنا في دراستنا للشاعر عن تاريخ هذا اليوم في مراحل الدعوة الاسلامية ، فلو ان الرماة التي اوكل اليهم النبي صلى الله عليه وسلم حراسة الشعب ، لم ينخدعوا بالنصر ويسارعوا الى الغنائم لاعتبر هذا اليوم من ايام النصر العظمى للمسلمين ، وهم رغم ما منوا به من خسائر ليعتبر هذا اليوم من الأيام التي يفاخر بها .

إذْ تُولُّونَ على أَعْقَابِكُمْ
هَرَبًا فِي الشِّعْبِ أَشْبَاهَ الرَّسَلْ(١)
نَضَعُ الخَطِّيَّ فِي أَكْتَافِكُمْ
حَيْثُ نَهوِي عَلَلاً بَعْدَ نَهَلْ
فَسَدَحْنَا فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ
مِنْكُمُ سَبْعِينَ غَيْرَ الْمُنْتَحَلْ
وَأَسَرْنَا مِنْكُمُ أَعْدَادَهُمْ
فَانْصَرَفْتُمْ مِثْلَ إِفْلَاتِ الحَجَلْ
لَمْ يَفُوتُونَا بِشَيءٍ سَاعَةً
غَيْرَ أَنْ وَلَّوْا بِجَهْلٍ وَفَشَلْ
ضَاقَ عَنَّا الشِّعْبُ إِذْ نَجْزَعُهُ
وَمَلَأْنَا الْفُرْطَ مِنْهُمْ وَالرِّجَلْ.
بِرِجَالٍ لَسْتُمُ أَمْثَالَهُمْ
أَيَّدُوا جِبْرِيلَ نَصْرًا فَنَزَلْ

---

(١) الرسل : الابل المرسلة .

وَعَلَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بِالتُّقَى
طَاعَةَ اللهِ وَتَصْدِيقَ الرُّسُلْ

وَتَرَكْنَا فِي قُرَيْشٍ عَوْرَةً
يَوْمَ بَدْرٍ وَأَحَادِيثَ مَثَلْ

وَتَرَكْنَا مِنْ قُرَيْشٍ جَمْعَهُمْ
مِثْلَ مَا جُمِّعَ فِي الخِصْبِ الْهَمَلْ

فَقَتَلْنَا كُلَّ رَأْسٍ مِنْهُمُ
وَقَتَلْنَا كُلَّ جَحْجَاحٍ رَفَلْ

نَحْنُ لاَ أَنْتُمْ بَنِي أَسْتَاهِهَا
نَحْنُ فِي البَأْسِ إِذَا البَأْسُ نَزَلْ .

يوم الخندق

•

وقال حسان :

لَقَدْ جُدِّعَتْ آذَانُ كَعْبٍ وَعَامِرٍ
بِقَتْلِ ٱبْنِ كَعْبٍ ثُمَّ حُزَّتْ أُنوفُهَا

فَوَلَّتْ نَطِيحاً كَبْشُهَا وَجُمُوعُهَا
ثُبَاتٍ عِزِينَ مَا تُلَامُ صُفُوفُهَا

وَحَازَ ٱبْنُ عَبْدٍ إِذْ هَوَى فِي رِمَاحِنَا
كَذَاكَ ٱلْمَنَايَا حَيْنُهَا وَحُتُوفُهَا

أُصِيبَتْ بِهِ فَهْرٌ فَلَا ٱنْجَبَرَتْ لَهَا
مَصَائِبُ بَادٍ حَرُّهَا وَشَفِيفُهَا

وَأُخْرَى بِبَدْرٍ حَارَ فِيهَا رَجَاؤُهُمْ
فَلَمْ تُغْنِ عَنْهَا نَبلُهَا وسُيُوفُهَا

وأُخْرَى وشِيكًا لَيْسَ فِيهَا تَحَوُّلٌ
يُصِمُّ المُنَادِي جَرْسُهَا وحَفِيفُهَا.

يوم حنين (١)

•

نَصَرُوا نَبِيَّهُمُ وَشَدُّوا أَزْرَهُ
بِحُنَيْنَ يَوْمَ تَوَاكُلِ الأَبْطَالِ

---

(١) قال الجوهري : « حنين موضع يذكر ويؤنث فاذا قصدت به الموضع والبلد ذكرته وصرفته كقول الله تعالى (ويوم حنين) وان قصدت به البلدة والبقعة انثته ولم تصرفه كما قال حسان « واستشهد بهذا البيت » وحسان يشير الى غزوة حنين وحديثها انه لما انتهى سيدنا رسول الله من فتح مكة ودخل الناس في دين الله افواجا تنمرت قبيلتا هوازن وثقيف وأدركتهما حمية الجاهلية وقالوا قد فرغ محمد من قتال قومه ولا ناهية له عنا فلنغزه قبل ان يغزو ، فأجمعوا امرهم على ذلك وتألب معهم جموع كثيرة من القبائل فلما بلغ السيد الأمين استعدادهم هذا أجمع رأيه على المسير اليهم وخرج معه اثناعشر الف غاز ، منهم الفان من أهل مكة والباقون هم الذين اتوا معه من المدينة وخرج أهل مكة ركبانا ومشاة حتى النساء يمشين وخرج في الجيش ثمانون من المشركين منهم صفوان بن امية وسهيل بن عمرو ولما قرب الجيش من معسكر العدو صف عليه السلام الغزاة وعقد الألوية ثم توجهت مقدمة المسلمين جهة العدو فخرج لهم كمين وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر فلووا أعنة خيلهم منقهقرين ، ولما وصلوا الى من قبلهم تبعوهم في الهزيمة لما ادركهم من الدهشة . أما النبي فثبت في ميدان القتال وثبت معه

وقال حسان في ابي بكر (١)

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة
فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا (٢)

بعض المهاجرين والأنصار ،وكان العباس بن عبد المطلب آخذاً بلجام البغلة وأبو سفيان بن الحارث آخذاً بالركاب وكان عليه السلام ينادي الي أيها الناس ويقول:

أنا النبي لا كذب انا ابن عبد المطلب

ثم قال للعباس . وكان جهوري الصوت ناد بالناس يا عباس فنادى يا معشر الأنصار يا أصحاب بيعة الرضوان فأسمع من في الوادي فصار الأنصار يقولون لبيك لبيك ويؤمون الصوت حتى اجتمع حول رسول الله منهم جمع عظيم وانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها (الملائكة) فكر المسلمون على عدوهم فانتكث فتل المشركين وتفرقوا في كل وجه لا يلوون على شيء وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وتم النصر للمسلمين فذلك قول حسان نصروا نبيهم – وتواكل الأبطال اي ضعفهم واتكالهم على غيرهم .

(١) روى صاحب جمهرة اشعار العرب بسنده الى عبدالله بن مسعود قال بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ان قوما نالوا أبا بكر بألسنتهم فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس ليس أحد منكم أمن علي في ذات يده ونفسه من أبي بكر كلكم قال لي كذبت وقال لي ابو بكر صدقت فلو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ثم التفت الى حسان فقال هات ما قلت في وفي ابي بكر فقال حسان قلت يارسول الله القصيدة :

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

(٢) الشجو : الهم والحزن .اذا تذكرت ما يحزنك من أخي ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعله معك فانه ينسيك بفعاله ما كان من غيره .

التَّالِيَ الثَّانِيَ المحْمُودَ شِيمَتُـــهُ
وَأَوَّلَ النَّاسِ طُرًّا صَدَّقَ الرُّسُلا

وَالثَّانِيَ ٱثْنَيْنِ فِي ٱلْغَارِ ٱلْمُنِيفِ وَقَدْ
طَافَ ٱلْعَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعَّدَ ٱلْجَبَلا

وَكَانَ حِبَّ رسُولِ اللهِ قَدْ عَلِمُوا
مِنَ ٱلْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلاَ (١)

خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ أَتْقَاهَا وَأَرْأَفُهـا
بَعْدَ ٱلنبيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلا .

---

(١) حب رسول أي محبوبه .

في الحكم والمواعظ (١)

•

أَعْرِضْ عَنِ ٱلْعَوْرَاءِ إِنْ أُسْمِعْتَهَا
وَٱقْعُدْ كَأَنَّكَ غَافِلٌ لا تَسْمَعُ (٢)

وَدَعِ السُّؤَالَ عَنِ ٱلْأُمُورِ وَبَحْثَهَا
فَلَرُبَّ حَافِرِ حُفْرَةٍ هُوَ يُصْرَعُ

---

(١) لعل الأوضاع السياسية في الجزيرة ابان الدعوة الاسلامية وانهماك حسان في الدفاع عنها صرفته الى وضع نواة الشعر السياسي ، ونحن لم نجد في ديوانه سوى هذه الأبيات في الحكم والمواعظ ، والدارس لهذه الأبيات لا يجد فيها الحكمة الاختبارية ، او العظة الرشيدة العميقة التي سبق لنا وعرفنا نماذج منها في شعر طرفة بن العبد ، ومن ثمة في شعر زهير بن ابي سلمى ، فحسان في ذلك لا يبلغ شأو من سبقه. «راجع الشعراء الأعلام للمؤلف ص ـ ٦٧»

(٢) العوراء : الكلمة القبيحة .

وَأْلزَمْ مُجَالَسَةَ ٱلْكِرَامِ وَفِعْلَهُمْ
وَإِذَا ٱتَّبَعْتَ فَأَبْصِرَنْ مَنْ تَتْبَعُ

لاَ تَتْبَعَنَّ غَوَايَةً لِصَبَابَةٍ
إِنَّ ٱلْغَوَايَةَ كُلَّ شَرٍّ تَجْمَعُ

وَٱلْقَوْمُ إِنْ نُزِرُوا فَزِدْ فِي نَزْرِهِمْ
لاَ تَقْعُدَنَّ خِلاَلَهُمْ تَتَسَمَّعُ

وَٱلشُّرْبَ لاَ تُدْمِنْ وَخُذْ مَعْرُوفَهُ
تُصْبِحْ صَحِيحَ الرَّأْسِ لا تَتَصَدَّعُ

وَٱكْدَحْ بِنَفْسِكَ لاَ تُكَلِّفْ غَيْرَهَا
فَبِدِينِهَا تُجْزَى وَعَنْهَا تَدْفَعُ

وَٱلْمَوْتُ أَعْدَادُ النُّفُوسِ وَلاَ أَرَى
مِنْهُ لِذِي هَرَبٍ نَجَاةً تَنْفَعُ .

في الاصدقاء

•

أَخِلاَّءُ الرَّخَاءِ هُمُ كَثِيرٌ
وَلَكِنْ فِي ٱلْبَلاءِ هُمُ قَلِيلُ

فَلا يَغْرُرْكَ خُلَّةُ مَنْ تُؤَاخِي
فَمَا لَكَ عِنْدَ نَائِبَةٍ خَلِيلُ (١)

وَكُلُّ أَخٍ يَقُولُ أَنَا وَفِيٌّ
وَلَكِنْ لَيْسَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ

سِوَى خِلٍّ لَهُ حَسَبٌ وَدِينٌ
فَذَاكَ لِمَا يَقُولُ هُوَ الفَعُولُ

---

(١) الخلة : الصداقة لأن كل واحد من الخليلين يسد خلل صاحبه في المودة والحاجة اليه ، والخل الصديق .

حديث الافك (١)

في الاعتذار

•

قال تعالى :

« إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امريء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذابٌ عظيم » سورة النور الآية ١١ وما يليها .

---

(١) « حدثتنا السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اراد سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فلما كانت غزوة بني المصطلق اقرع بين نسائه فخرج سهمي عليهن معه فخرج بي رسول الله : فلما فرغ رسول الله من سفره ذلك وجه قافلا حتى اذا كان قريباً من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل ، ثم اذن في الناس بالرحيل ، فارتحل الناس وخرجت لبعض حاجتي وفي عنقي عقد لي ، فلما فرغت انسل من عنقي فلم اجده وقد أخذ الناس في الرحيل فرجعت الى مكاني الذي ذهبت اليه فالتمسته حتى وجدته وجاء القوم خلافي الذين كانوا يرحلون لي البعير وقد

فرغوا من رحلته فأخذوا الهودج وهم يظنون اني فيه كما كنت اصنع فاحتملوه فشدوه على البعير ولم يشكوا اني فيه ، ثم اخذوا برأس البعير فانطلقوا به فرجعت الى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب وقد انطلق النـــاس . فتلففت بجلبابي ثم اضجعت في مكاني وعرفت ان لو قد افتقدت لرجع الي ، فوالله اني لمضجعة اذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته فلم يبت مع الناس فرأى سوادي « السواد الشخصي » فأقبل حتى وقف علي ، وقد كان يراني قبل ان يضرب علينا الحجاب فلما رآني قال انا لله وانا اليـــه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا متلففة في ثيابي قال : ما خلفك يرحمك الله ؟ فما كلمته ثم قرب البعير فقال اركبي واستأخر فركبت وأخذ رأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس فوالله ما أدركنا وما افتقدت حتى اصبحت ، ونزل النـــاس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقودني فقال اهـــل الافك « الافك في الأصل الكذب ؛ والمراد به هنا ما كذب عليها مما رميت به. » ما قالوا فارتجع العسكر . والله ما اعلم بشيء من ذلك ، ثم قدمنا المدينة فلم البث ان اشتكيت شكوى شديدة ولا يبلغني من ذلك شيء وقد انتهى الحديث الى رسول الله والى ابوي لا يذكرون لي منه قليلا ولا كثيراً ، الا اني انكرت من رسول الله بعض لطفه بي ، كنت اذا اشتكيت رحمني ولطف بي فـــلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك فأنكرت ذلك منه ، كان اذا دخل علي وعندي امي تمرضني قال كيف تيـــكم ، لا يزيد على ذلك ، قالت : حتى وجدت في نفسي فقلت يا رسول الله — حين رأيت ما رأيت من جفائه لي — لو اذنت فانتقلت الى امي فمرضتني ، قال لا عليك ، فانتقلت الى امي ولا علم لي بشيء فما كان حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنا قوما عربا لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف التي تتخذها الأعاجم ، نعافها ونكرهها انما كنا نذهب في فسح المدينة ، وانما كانت النساء يخرجن في كل ليلة في حوائجهن فخرجت ليلة لبعض حـــاجتي ومعي ام مسطح بنت ابي رهم بن المطلب بن عبد مناف وكانت امها بنت صخر بن عامر ابن كعب بن سعد بن تيم خالة ابي بكر فوالله انهـــا لتمشي معي اذ عثرت في

مرطها « المرط الكساء » فقالت تعس مسطح « اي اهلكه الله . » – ومسطح لقب واسمه عوف – قلت بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا ؟ قالت : أوما بلغك الخبر يا بنت ابي بكر؟ قلت وما الخبر ، فأخبرتني بالذي كان من قول اهل الافك ، قلت او قد كان هذا ؟ قالت نعم ، والله لقد كان، فوالله ما قدرت على ان اقضي حاجتي ورجعت ، فوالله ما زلت ابكي حتى ظننت ان البكاء سيصدع كبدي « يشقه » وقلت لأمي يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً ! قالت اي بنية خفضي عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر الا كثرت وكثر الناس عليها ، قالت وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس يخطبهم ولا اعلم بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت منهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً وما يدخل بيتاً من بيوتي الا وهو معي ، قالت : وكان كبر ذلك عبدالله بن ابيّ بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح ، وحمنة بنت جحش ، وذلك ان اختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ولم تكن من نسائه امرأة تناصبني في المنزلة عنده « أي تنازعني في الرتبة عنده » غيرها فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل الا خيراً وأما حمنة بنت جحش فأشاعت ذلك ما أشاعت تضادني لاختها فشقيت بذلك ، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة قال اسيد بن حضير يا رسول الله ان يكونوا من الأوس نكفكهم وان يكونوا من اخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك فوالله انهم لاهل أن تضرب اعناقهم ، فقام سعد بن عبادة – وكان قبل ذلك يرى رجلا صالحاً – فقال كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم اما والله ما قلت هذه المقالة الا انك قد عرفت انهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا فقال اسيد كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ، وتشاور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر ، ونزل رسول الله فدخل علي ، فدعا علي بن أبي طالب واسامة بن زيد فاستشارهما فأما اسامة

فاثنى علي خيراً ثم قال يا رسول الله ، اهلك ولا نعلم الا خيراً وهذا الكذب والباطل ، واما علي فانه قال يا رسول الله : ان النساء لكثير وانك لقادر على ان تستخلف ، وسل الجارية فانها ستصدقك فدعا رسول الله بريرة ليسألها فقام اليها علي بن ابي طالب فضربها ضرباً شديداً وهو يقول اصدقي رسول الله فتقول والله ما اعلم الا خيراً . ثم دخل رسول الله وعندي ابواي وعندي امرأة من الانصار وانا ابكي وهي تبكي معي فجلس فحمد الله واثنى عليه ثم قال يا عائشة انه ما قد بلغك من قول الناس فاتقي الله فان كنت قارفت سوء مما يقول الناس فتوبي الى الله فان الله يقبل التوبة من عباده . قالت : فوالله ما هو الا ان قال لي ذلك فقلص « قلص ارتفع » دمعي حتى ما أحس منه شيئاً وانتظرت ابوي ان يجيبا عني رسول الله فلم يتكلما قالت : وايم الله لان كنت احقر في نفسي واصغر شأناً من ان ينزل الله في قرآنا يقرأ في المساجد ويصلى به ، ولكني قد كنت ارجو ان يرى رسول الله في نومه شيئاً يكذب به الله عني لما يعلم من براءتي او يخبر خبراً فأما قرآن ينزل فوالله لنفسي كانت احقر عندي من ذلك ، فلما لم ار ابواي يتكلمان قلت لهما الا تجيبان رسول الله فقالا والله ما ندري بماذا نجيبه فلما ان استعجما علي استعبرت فبكيت ثم قلت والله لا اتوب الى الله مما ذكرت أبداً والله اني لاعلم لئن قررت بما يقول الناس والله يعلم اني منه بريئة لاقولن ما لم يكن ، ولئن انا انكرت ما تصفون ، فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسجى في ثوبه ووضعت له وسادة من ادم تحت رأسه فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليت قد عرفت اني منه بريئة وان الله عز وجل غير ظالمي وأما ابواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن انفسهما فرقا من ان يأتي من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سرى عن رسول الله فجلس وانه ليتحدر منه مثل الجمان في يوم شات فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول ابشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك قلت بحمد الله ثم خرج الى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما انزل الله عليه من القرآن في ذلك ثم امر

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ
وَتُصْبِحُ غَرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوافِلِ (١)

بمسطح بن اثاثة وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش – وكانوا ممن افصح بالفاحشة – فضربوا حدهم .

لقد اثبتنا حديث الافك حرفياً ، لما نرى له من الأثر في الحياة السياسية الاسلامية فيما بعد .

وحول حديث الافك وموقف الامام علي من السيدة عائشة عند ما قال للرسول « ان النساء لكثير وانك لقادر على ان تستخلف » لي رأي خاص ، ان موقف الامام علي من السيدة عائشة في هذه المحنة التي برئت منها ، والتي خلقت في نفسها ما خلقت من الشعور نحو الامام ، هي التي دفعت السيدة عائشة ان تقف من الامام يوم بيعته موقفا مناوئاً له، داعية بالخلافة لطلحة بن الزبير ، وان موقف السيدة عائشة في هذا اليوم والخلاف الذي وقع بين انصارها من جهة وبين انصار الامام علي من جهة اخرى ، مكن معاوية بن ابي سفيان ان يثور على الامام ، وان هذه الأوضاع هي التي جرّت المسلمين الى ما جرتهم اليه من خلافات ، فكنت معاوية من انشاء الدولة الاموية وجعل الخلافة وراثية ، ولو ان الرأي ترك للمسلمين في اختيار الخلافة كما كان الأمر في عهد الخلفاء الراشدين لتجنب العالم الاسلامي كثيراً من الويلات ، ولعل الله له في ذلك حكمة . »

(١) الحصان هنا العفيفة والرزانة الملازمة موضعها التي تتصرف كثيراً ، وامرأة رزان اذا كانت ذات ثبات ووقار وعفاف وكانت رزينة في مجلسها ، وما تزن اي ما تتهم ، وغرثى اي جائعة ، والغوافل جمع غافلة يريد أنها لا ترتع في أعراض الناس .

وفي حديث رواه مسلم : ان حسان عندما انشد السيدة عائشة قصيدته هذه ووصل الى قوله

وتصبح غرثى من لحوم الغوافل . »

قالت له « لكنك يا حسان ما تصبح غرثان من لحومهن . »

حَلِيلَةُ خَيْرِ النَّاسِ دِيناً وَمَنْصِباً
نبيِّ الهُدَى وَالمَكْرُمَاتِ الْفَوَاضِلِ (١)

عَقِيلَةُ حَيٍّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ
كِرَامِ المَسَاعِي مَجْدُهَا غَيْرُ زَائِلِ (٢)

مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللهُ خِيمَهَا
وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ (٣)

فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمُ
فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَا مِلِي (٤)

وَإِنَّ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلاَئِطٍ
بِهَا الدَّهْرَ بَلْ قَوْلُ امْرِيءٍ بِيَ مَاحِلِ (٥)

---

(١) الحليلة : الزوجة .

(٢) العقيلة : الكريمة ، المساعي : جمع مسعاة ، وهو ما يسعى فيه من طلب المجد والكرم .

(٣) مهذبة : صافية مخلصة . الخيم : الطبع والأصل .

(٤) الأنامل أطراف الأصابع ، وقد يراد بها هنا الأصابع كلها .

(٥) ليس بلائط : اى بلاصق ، والماحل هنا المشاء بالنميم يقال محل به الى السلطان اي وشى به .

فَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَييتُ وَنُصرَتي
لآلِ نَبيِّ اللهِ زَيْنِ ٱلمَحافِلِ
لَهُ رُتَبٌ عَالٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ
تَقَاصَرُ عَنْهُ سُورةُ المُتَطاوِلِ (١)
رَأَيْتُكِ وَلْيَغْفِرْ لَكِ اللهُ حُرَّةً
مِنَ ٱلمُحْصَنَاتِ غَيْرِ ذَاتِ غَوَائِلِ .

(١) رتب: جمع رتبة . تقاصر : بحذف احدى التاءين اي تتقاصر . والسورة، بفتح السين، الوثبة ، يقال تساور الرجلان اذا توائبا والسورة بضم السين المنزلة.

وقال يمدح عبدالله بن عباس .

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل
بملتقطات لا ترى بينها فصلا (١)

كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع
لذي إربة في القول جداً ولا هزلا (٢)

سموت إلى العليا بغير مشقة
فنلت ذراها الأدنيا ولا وغلا (٣) .

---

(١) بملتقطات : اي بمختيرات .
(٢) الاربة : الحاجة .
(٣) الوغل من الرجال : النذل الضعيف الساقط .

وقال يمدح جبلة بن الأيهم .

لِمَنِ الدَّارُ أَوْحَشَتْ بِمَعَانِ
بَيْنَ أَعْلاَ ٱلْيَرْمُوكِ فَٱلْحُمَّانِ (١)
فَٱلْقُرَيَّاتِ مِنْ بِلاَسَ فَدا رِيَّـ
ـا فَسَكَّاءَ فَٱلْقُصُورِ الدَّوَانِي (٢)
فَقِفَا جَاسِمٍ فَأَوْدِيَةِ الصُّفَّـ
ـرِ مَغْنَى قَبَائِلٍ وَهِجَانِ (٣)
تِلْكَ دَارُ ٱلْعَزِيزِ بَعْدَ أَنِيسٍ
وَحُلُولٍ عَظِيمَةِ ٱلْأَرْكَانِ
ثَكِلَتْ أُمُّهُمْ وَقَدْ ثَكِلَتْهُمْ
يَوْمَ حَلُّوا بِحَارِثِ ٱلْجَوْلاَنِ (٤)

(١ـ٢ـ٣) هذه مواضع باكناف دمشق كانت مقر ملك آل جفنة الغساسنة . المغنى : المنزل . قبائل : يقصد بها هنا الرؤساء . ورجل هجان : ابيض كريم الحسب نقيه . الهجان من كل شيء خالص .
(٤) حارث الجولان : اى غير مرة .

قَدْدَنَا ٱلْفِصْحُ فَٱلْوَلَائِدُ يَنْظِمْـ
ـنَ سِرَاعًا أَكِلَّةَ ٱلْمَرْجَانِ (١)

يَجْتَنِينَ ٱلْجَادِيَّ فِي نُقَبِ الرَّيْـ
ـطِ عَلَيْهَا مَجَاسِدُ ٱلْكَتَّانِ (٢)

لَمْ يُعَلِّلْنَ بِٱلْمَغَافِرِ وَٱلصَّمْـ
ـغِ وَلَا نَقْفِ حَنْظَلِ الشَّرْيَانِ (٣)

ذَكَ مَغْنًى مِنْ آلِ جِفْنَةَ فِي الدَّهْـ
ـرِ وَحَقٌّ تَعَاقُبُ الْأَزْمَانِ (٤)

قَدْ أَرَانِي هُنَاكَ حَقَّ مَكِينٍ
عِنْدَ ذِي التَّاجِ مَجْلِسِي وَمَكَانِي .

---

(١) الفصح : عيد قيامة السيد المسيح . الولائد : ج وليدة الجارية الحسناء الصغيرة . الأكله ج اكليل وهنا التاج .

(٢) الجادي : الزعفران . والنقب : نقبة وهي ثوب كالأزار . الريط : الثياب اللينة الرقيقة . المجاسد ج المجسد بكسر الميم وهو القميص مطلقا .

(٣) المغافر : صمغ يسيل من الحنظل ومعنى الأبيات ان ولائدهن يستخدمن كل ذلك ، ولكن لا يستخرجن الحنظل كما تفعل الاعراب .

(٤) قوله وحق تعاقب الازمان فتعاقبها تصرفها بأهلها ، وكذلك الدهر حالا بعد حال .

في الرثاء

•

قال يرثي اصحاب الرجيع (١) :

صَلَّى الإِلٰهُ عَلَى الَّذِينَ تَتَابَعُوا
يَوْمَ الرَّجِيعِ فَأَكْرِمُوا وَأُثِيبُوا (٢)
رَأْسُ الْكَتِيبَةِ مَرْثَدٌ وَأَمِيرُهُمْ
وَابْنُ الْبَكِيرِ أَمَامَهُمْ وَخُبَيْبُ

---

(١) يوم الرجيع: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد ، رهط من عضل والقارة . فقالوا يا رسول الله ان فينا اسلاماً فابعث معنا نفراً من اصحابك يفقهوننا في الدين ويقرؤوننا القرآن ويعلموننا شرائع الاسلام فبعث معهم الرسول نفراً من اصحابه وهم الذين يذكرهم حسان في هذه القصيدة حتى إذا كانوا على الرجيع « وهو ماء لهزيل بين مكة وعسفان » غدر بهم اولئك الرهط فقتلوا منهم ثلاثة واستأسروا ثلاثة .

(٢) اي اثيبوا عند الله عز وجل .

وابْنٌ لِطَارِقِ وابْنُ دَثْنَةَ مِنْهُمُ
وَافَاهُ ثَمَّ حِمَامُهُ ٱلْمَكْتُوبُ
مَنَعَ المَقَادَةَ أَنْ يَنَالُوا ظَهْرَهُ
حَتَّى يُجَالِدَ، إِنَّهُ لَنَجِيبُ (١)
وَٱلْعَاصِمُ ٱلْمَقْتُولُ عِنْدَ رَجِيعِهِمْ
كَسَبَ المَعَالِي إِنَّهُ لَكَسُوبُ .

(١) المقادة : المذلة ، وقوله حتى يجالد ، اي حتى يضارب .

وقال يرثي رسول الله صلى الله عليه وسلم :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لاَ تَنَامُ كَأَنَّمَا
كُحِلَتْ مَآقِيهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ (١)

جَزَعاً عَلَى الْمَهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِياً
يَا خَيْرَ مَنْ وَطِىءَ الْحَصَى لا تَبْعُدِ

وَجْهِي يَقِيكَ التُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِي
غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ (٢)

---

(١) المآقي : مجاري الدموع من العين، والأرق الذي يشتكي وجع عينيه .

(٢) بقيع الغرقد : هو بقيع المدينة الذي يدفنون فيه موتاهم .

بأبي وأمي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ
فِي يَوْمِ ٱلاثْنَيْنِ النَّبِيُّ ٱلْمُهْتَدِي (١)

فَظَلِلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّداً
مُتَلَدِّداً يَا لَيْتَنِي لَمْ أُولَدِ (٢)

أَأُقِيمُ بَعْدَكَ بِٱلْمَدِينَةِ بَيْنَهُمْ
يَا لَيْتَنِي صُبِّحْتُ سَمَّ ٱلأَسْوَدِ (٣)

أَوْ حَلَّ أَمْرُ اللهِ فِينَا عَاجِلاً
فِي رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ فِي غَدِ

فَتَقُومَ سَاعَتُنَا فَنَلْقَى طَيِّباً
مَحْضاً ضَرَائِبُهُ كَرِيمَ ٱلْمَحْتِدِ (٤)

---

(١) بأبي وأمي : أي افديه بأبي وامي . توفى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة احدى عشرة في مثل الوقت الذي دخل فيه المدينة .

(٢) المتبلد من ادركته حيرة ومثله المتلدد .

(٣) صبت سم الأسود : أي ليتني سقيت صبحاً ، والأسود العظيم من الحيات .

(٤) تقوم ساعتنا : تقوم القيامة ، ونلقى طيبا يعني سيدنا رسول الله . والضرائب ج ضريبة وهي الطبيعة . المحتد : الأصل .

يَا رَبِّ فاجْمَعْنَا مَعًا وَنَبِيَّنَا
فِي جَنَّةٍ تَشْنِي عُيُونَ الْحُسَّدِ
وَاللهُ أَكْرَمَنَا بِهِ وَهَدَى بِهِ
أَنْصَارَهُ فِي كُلِّ سَاعَةِ، مَشْهَدِ
صَلَّى الإِلٰهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ
وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدِ .

وقال يرثي عمر بن الخطاب :

وَفَجَّعَنَا فَيْرُوزُ لَا دَرَّ دَرُّهُ
بِأَبْيَضَ يَتْلُو الْمُحْكَمَاتِ مُنِيبِ (١)

(رَؤُفٍ عَلَى الْأَدْنَى غَلِيظٍ عَلَى الْعِدا
أَخِي ثِقَةٍ فِي النَّائِبَاتِ نَجِيبِ (٢)

مَتَى مَا يَقُلْ لَا يَكْذِبُ الْقَوْلَ فِعْلُهُ
سَرِيعٍ إِلَى الْخَيْرَاتِ غَيْرِ قَطُوبِ) (٣)

---

(١) فيروز ،هو لؤلؤة الذي قتل الخليفةعمر رضى اللهعنه.

(٢) هو رؤف بالادنى : اخو ثقة : صاحب ثقة . والنجيب من الرجال الكريم الحسيب .

(٣) قوله غير قطوب يعني غير عبوس ، والقطوب تزوي ما بين العينين عند العبوس ، لقد صدق حسان في وصفه الفاروق رضي الله عنه .

وقال يرثي عثمان بن عفان :

مَاذَا أَرَدْتُمْ مِنْ أَخِي ٱلْخَيْرِ بَارَكَتْ
يَدُ اللهِ فِي ذَاكَ الأَدِيمِ ٱلْمُقَدَّدِ (١)
قَتَلْتُمْ وَلِيَّ اللهِ فِي جَوْفِ دَارِهِ
وَجِئْتُمْ بِأَمْرٍ جَائِرٍ غَيْرِ مُهْتَدِي
فَهَلاَّ رَعَيْتُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَسْطَكُم
وَأَوْفَيْتُمُ بِالعَهْدِ عَهْدِ مُحَمَّدِ .
أَلَمْ يَكُ فِيكُمْ ذَا بَلاَءٍ وَمَصْدَقٍ
وَأَوْفَاكُمُ عَهْداً لَدَى كُلِّ مَشْهَدِ (٢)
فَلاَ ظَفِرَتْ أَيْمَانُ قَوْمٍ تَظَاهَرَتْ
عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ ٱلرَّشِيدِ ٱلْمُسَدَّدِ (٣)

---

(١) الأديم : الجلد . والمقدد من القد : وهو القطع .
(٢) البلاء : الانعام . وفلان ذو مصدق : اي صادق الحملة. المشهد المجمع .
(٣) فلا ظفرت ايمان قوم ، فلا ظفروا ، والايمان جمع يمين وهي اليد اليمنى ، تظاهرت : تعاونت .

وقال فيه ايضاً :

مَنْ سَرَّهُ ٱلْمَوْتُ صِرْفاً لا مِزاجَ لَهُ
فَلْيأْتِ مَأْسَدَةَ فِي دارِ عُثْمانا (١)

ضَحَّوا بِأَشْمَطَ عُنْوانُ السُّجُودِ بِهِ
يُقَطِّعُ ٱللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنا. (٢)

لَتَسْمَعَنَّ وَشِيكاً فِي دِيارِهِمِ
اللهُ أَكْبَرُ يا ثارَاتِ عُثْمانا (٣)

ويْهاً فِدًى لَكُمُ أُمِّي وَمَا وَلَدَتْ
قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فِي ٱلْمَكْرُوهِ أَحْيانا (٤)

شُدُّوا السُّيُوفَ بِثِنِي فِي مَناطِقِكُمْ
حَتَّى يَحِينَ بِهَا فِي الموْتِ مَنْ حانا (٥)

---

(١) المأسدة موضع الاسد ، وارض مأسدة كثيرة الاسد شبه دار عثمان والقتال بها بالمأسدة ، وصرفا خالصاً .

(٢) ضحوا ههنا استعاره ـ لأن الأصل في ضحى ،ذبح الاضحية ، ضحى يوم النحر. قوله باشمط يريد بأبيض وعنوان السجود به مبتدأ وخبر ويقول سيما السجود في وجهه وقرآنا اي قراءة .

(٣) وشيكا سريعاً يهددهم حسان بقرب مجيء جيش معاوية لينتقم من قتلة عثمان

(٤) وي هنا تنبيه وتقرير .

(٥) يقول انصروا عثمان بسيوفكم حتى يهلك من لم يرشد فيحين يهلك ، وحان لم يكن على رشاد.

فهرس الكتاب

صفحة

تعريف بالشاعر ٥
مقدمة المؤلف ٦
حياة الشاعر وتاريخه ٨
اتصاله بالمناذرة والغساسنة ١٠
آثاره ١٢
ميزته ، ومنزلته ١٣

الفصل الأول ١٥

محمد في الغار ـ الوحي ـ حديثه مع زوجه خديجة .

الفصل الثاني ١٩

إيمان زوجه به ـ حديث ورقة بن نوفل ـ إيمان ابي بكر ـ إيمان نفر من كبار القوم ـ الصلاة في شعب مكة ـ أمر الله بدعوة عشيرة النبي ـ اسباب نزول سورة اللهب ـ مقاطعة قريش لمحمد وأصحابه بيعة العقبة الاولى ـ بيعة العقبة الثانية ـ هجرة المسلمين الى المدينة هجرة النبي مع صاحبه .

صفحة

الفصل الثالث ٢٥

اهل المدينة يرتقبون وصول النبي ـ نزول النبي في ارض ليتيمين ـ زيارته لمسجد المؤمنين في وادي « رانونا » ـ اتصال حسان بالنبي ـ مدحه إياه .

الفصل الرابع ٢٨

موقف حسان من الدعوة الاسلامية ـ ملازمته للنبي ـ مدحه إياه .

الفصل الخامس ٣٠

حسان يصور اوضاع الجزيرة قبل الاسلام ـ عبادتهم ـ محمد يضيء جوانب الارض بنوره ـ حسان والمباديء الاسلامية ـ مدح حسان ومنزلته في الأدب العربي . آراء النقاد في جبن حسان ـ ردنا على هذه الآراء ـ حسان واضع نواة الشعر السياسي في الأدب العربي .

الفصل السادس ٣٧

موقف حسان من الدعوة الاسلامية ـ دفاعه عن الدين بشعره ـ هجاؤه لأبي سفيان ـ منزلة هجائه في الأدب العربي ـ روايات حول تكليف النبي لحسان في هجاء خصوم الدين ـ ردنا على هذه الروايات ـ مكانة النبي في قريش .

الفصل السابع ٤٤

شعر حسان وثائق تاريخية ـ حسان يصف موقعة بدر ـ اسباب نزول سورة الانفال ـ يوم احد ـ حسان يصف هذه المعركة التاريخية ـ تعداده لقتلة المسلمين ـ آراء بعض النقاد في موقعة أحد ـ ردنا على هذه الآراء ـ حسان مؤسس الشعر التاريخي الاسلامي .

صفحة

الفصل الثامن ٥٤

قصيدة حسان في وصف دخول المسلمين الى مكة ، وقد فتح الله بها عليه ـ ماقيل في هذا اليوم .

الفصل التاسع ٦٠

رثاء حسان — ميزة هذا الشعر — رثاؤه في النبي .

الفصل العاشر ٦٩

رأي الاصمعي في شعر حسان الجاهلي منه والاسلامي – رأي الشاعر في ذلك – قوة شعره الجاهلي – ضعف شعره الاسلامي – علاقته بالغساسنة – استخدامه اسلوب الجاهليين التقليدي .

منتخبات ٧٩

النبي يدعو الناس ٨٠

دعوة محمد ٨٢

يفتخر بنصر النبي ٨٤

في الفخر ، رده على قيس بن الخطيم . . . ٨٧

يفتخر بنسبه ٩٠

منزلته قبل الاسلام ٩٣

مواقع المسلمين ٩٥

يوم بدر ٩٦

قصيدة ابن الزبعرى يوم احد . . . ٩٨

صفحة

ردحسان ١٠٠
يوم الخندق ١٠٣
يوم حنين ١٠٥
شعر حسان في ابي بكر ١٠٦
في الحكم والمواعظ ١٠٨
في الاصدقاء ١١٠
حديث الافك - رأينا في موقف الأمام علي من
السيدة عائشة ١١١
اعتذار حسان للسيدة عائشة ١١٥
في مدح ابن عباس ١١٨
في مدحه لجبلة بن الايهم ١١٩
في الرثاء - رثاء اصحاب الرجيع . . . ١٢١
في رثاء النبي ١٢٣
في رثاء عمر بن الخطاب ١٢٦
في رثاء عثمان بن عفان ١٢٧
» » » » ١٢٨